نشرة غير دورية تصدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان

العددان ٨٩/٩٠ نوفمبر ٢٠٠٩

سواسية

لماذا هذا العدد؟

عندما فكرنا في مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان أن نعمل على إصدار عدد خاص من سواسية، في موعد تأبين الدكتور محمد السيد سعيد؛ وجدنا أننا لسنا في حاجة لإطلاق دعوة نستكتب فيها أصدقاء وزملاء وتلامذة الدكتور. فقد فاضت بالفعل صفحات الجرائد والمجلات والدوريات بكم هائل من المقالات، التي اكتست بفخر أصحابها الذين وهبتهم الحياة فرصة الاقتراب من إنسان يندر أن يجود الزمان بمن هم على شاكلته، وبمن هم في مثل نبله ونبوغه وإخلاصه، كما تفجرت أيضًا من الكلمات التي صاغتها قلوب المكلومين في الدكتور، ينابيع الحزن والمرارة لأن الرجل العظيم لم ينل ما يستحقه من تقدير وتكريم خلال حياته؛ وكأن هذا قدر ومصير كل العظماء والنبلاء في بلادنا.

فقد كان الدكتور محمد من فرسان الحركة الحقوقية المصرية ومنظرها الأبرز، وربما الأوحد، فضلاً عن كونه مثقفًا شاملاً له اسهاماته النظرية والعملية في كثير من المجالات والميادين. وعاش عمره القصير بروح المناضل، وعقلية الباحث، وقلب الفنان، مدافعًا عن الإنسان وكرامته، ونُصب عينيه حلم كبير يهيمن على حركته وأفكاره، وهو إنجاز المصريين للتحول الديمقراطي الذي يستحقونه، وتحريرهم من ربقة نظام استبداي، عمل لعقود على حرمانهم من التمتع بالحرية وحقوق الإنسان.

ولا نزعم أن المقالات التي ستطالعونها في هذا العدد، هي كل ما كُتب عن الدكتور محمد السيد سعيد في الصحافة المصرية والعربية؛ وإنما هذا ما سمحت به إمكانياتنا المتواضعة، التي اقتضت منا أن ندقق في الاختيار، ونقتصد في كلمات بعض ما اخترناه لاعتبارات فنيّة، تتعلق بالطباعة وعدد الصفحات المحدود.

ونود أن نقول بوضوح أننا لم نبتغي من وراء إصدار عدد خاص، يضم بين دفتيه هذه المجموعة المنتقاة من المقالات، أن نُقدِّم إسهامنا المتواضع في رثاء الدكتور؛ فنحن في حقيقة الأمر الذين نرثي أنفسنا في فقده.

لقد أردنا فقط أن نقول له: ستظل دومًا يا محمد بيننا، وفينا، مصدرًا للإلهام.

رئيس التحرير

سواسية

العددان ٨٩/٩٠

يصدرها مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان
CIHRS

ساهم فى تأسيسه
د. محمد السيد سعيد

العنوان: ٢١ شارع عبد المجيد الرمالي- الدور السابع- شقة رقم ٧١- باب اللوق- القاهرة
تليفون: ٢٧٩٥١١١٢-٢٧٩٦٣٧٥٧
فاكس: ٢٧٩٢١٩١٣
الموقع الإلكتروني www.cihrs.org

رئيس التحرير
رجب سعد طه

غلاف وإخراج فني
هشام السيد

رئيس مجلس الإدارة
كمال جندوبي

المدير العام
بهي الدين حسن

المدير التنفيذي
معتز الفجيري

محمد السيد سعيد
رائد حقوق الإنسان

بهي الدين حسن
مدير مركز القاهرة

عندما توفى د. عادل أبو زهرة أحد أهم وأنبغ رموز المجتمع المدني في السنوات العشر الأخيرة، كتب محمد في الأهرام ينعيه للمواطن والوطن بطريقة فريدة، مزج فيها بين أفضل خصائص أبو زهرة كناشط مدني (الأسلوب العلمي في التفكير، الإيمان بقيمة الإنسان الفرد، وفي نفس الوقت بقيمة العمل الجماعي والتراكمي، التمتع بدأب "النمل" في العمل وفي تجويده، الإيمان بأن الحداثة هي الحل، دماثة الخلق والتواضع ونكران الذات.....إلخ) وبين مهمات تطور البلاد. حينئذ قلت لمحمد أتمني أن تعيش حتي تنعيني.

عندما أعود بذاكرتي لذلك المقال الموجز للغاية، أشعر للتو أن محمد كان بوعي أو دونه، يقصد أن ينعي نفسه والقيم التي يمثلها عادل ومحمد وآخرين.

ترى من، وكم، مازال يذكر عادل أبو زهرة ويدرك فضله علي مواطنيه؟

لقد قاومت كثيرا فكرة أن أكتب عن محمد خلال الشهور الأخيرة، برغم أنني كنت أراه سعيدا بما تقرأه له زوجته السيدة نور الهدى من مقالات، تعيد بعض الاعتبار للقيم النبيلة التي جسدها محمد في سلوكه كشخص، أو دافع عنها كمفكر وكحقوقي، وبالتالي تعزز معنوياته ومقاومته.

كان في يقيني أن محمد سيعتبر مقالي بالذات نعيا مبكرا واستجابة متعجلة لتوقعه السابق بأن أكون ناعيه، بالطبع لم يكن هذا ما أسعى إليه.

في هذا السياق كان اعتقادي أن مقالي- بالعكس- لم يكن ليساعده في دعم مقاومته للمرض الذي كان قد بدا يهاجمه بشراسة أكبر، بل كان سيفسر باعتباره تسليما بنهاية موشكة، ودعوة ضمنية للاستسلام من صديقه المقرب.

يوما ما، عندما يجري تقييم وتحليل عميق للميراث الفكري والعملي لمحمد، أتوقع أن تكون اليد العليا لإسهاماته الحقوقية، ليس لأنها الأكثر عددا أو الأكثر عمقا من إسهاماته الأكاديمية أو الفكرية أو السياسية، ولكن لأنها التي أسهمت في إنشاء وتنمية واقع جديد ملموس في بلادنا، كان لمحمد الفضل الأكبر في وضع لبناته النظرية والعملية الأولي.

ليس هذا هو الوقت المناسب للقيام "بجردة" شاملة في ميراث محمد النظري والميداني، حتي فيما ينحصر بالمجال الحقوقي، إنها مجرد رؤوس أقلام للتأمل.

- وضع محمد لبنات نظرية خاصة للدفاع عن حقوق الإنسان في العالم العربي، تعترف بعالمية حقوق الإنسان، وتقر في نفس الوقت بعناصر معينة من الخصوصية الثقافية، وهي تلك التي لا تؤدى إلى إهدار الكرامة الإنسانية. تحت مظلة هده المدرسة تنضوي أغلبية كبرى وأهم منظمات حقوق الإنسان في العالم العربى.

- وضع محمد أول مرشد عمل ميداني لمنظمات حقوق الإنسان في مصر، خلال الفترة التأسيسية للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وهي الخطوط العريضة التي ظلت لعقد من الزمان علي الأقل ترشد العمل الحقوقي في مصر.

- وضع محمد الإطار النظري والعملي التأسيسي لمركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، والذي صار بفضله أحد أهم منابر حقوق الإنسان في العالم العربي، فضلا عن مكانته الدولية الخاصة.

خلال هذه الإسهامات الرئيسية كتب محمد عشرات الدراسات والمقالات والكتب، اختص مركز القاهرة بنشر أغلبها، وهى تشكل عدة مجلدات.

هناك وفرة من الأكاديميين أو الحقوقيين الذين لديهم إنجازات جيدة، ولكن لا يوجد سوى محمد الذي أخذ على عاتقه مهمة الارتقاء الفكري بالعمل الحقوقي من ناحية، ومهمة جذب الأكاديميين للعمل الحقوقي كمجال للدراسة أو كمجال للعمل العام من ناحية أخرى؛ فقد كان يضع ساقا هنا وأخرى هناك.

في كل الأحوال، هناك حاجة ماسة لجمع وإعادة تصنيف كل ميراث محمد الفكري وإعادة تقديمه للمصريين، الذين آمن دائما بأنهم جديرون بوضعية أفضل كثيرا مما هم عليه، رغم عمق إدراكه لمدى الهوة التي انحطت إليها ثقافتهم العامة وتثمينهم لقيمة العمل، ومدى تمكن الخواء الروحي من نفوسهم، وبالتالي فداحة المهمة الملقاة علي عاتق المهمومين بتقدم مصر.

بإيجاز لقد ترك محمد بصمة كبيرة ولكنها تحتاج إلى من يجليها، بحيث يستطيع الناس أن يروها، وهذه مهمة ورشة عمل ممتدة تجمع تلاميذه ومحبيه وزملائه وأصدقائه في المجالات العديدة، التي أسهم محمد في إشعالها بالحيوية الفكرية والروح الوثابة، التي كانت من أبرز خصائصه.

نشرت جريدة «الأهرام» موجز لهذا المقال في ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩.

حلم لا يموت

د. وحيد عبد المجيد
مدير مركز الأهرام للنشر والترجمة

يعرف كل من يتمنى مستقبلا أفضل لبلادنا حجم الخسارة المترتبة على غياب عقل، لم يتوقف لحظة على مدى عقود.. ويدرك كل من تابع مشوار محمد السيد سعيد باحثا وخبيرا ومفكرا حجم الإسهام الذي قدمه في البحث، عن طريق التطور الوطني الديمقراطي والعدل الاجتماعي. ولكن هذا هو حلمه الذي عاش من أجله مهموما بقضايا الوطن والأمة استقلالا وديمقراطية وعدلا في مختلف المراحل. تغير منهجه وطريقة تفكيره وأسلوب معالجته لهذه القضايا. ولكن لم يتبدل أبدا الهدف الذي نذر عقله من أجله. ولم يفقد البوصلة التي حرص دائما على أن تهديه إلى حيث يكون الحق والخير والحرية.

ولعل هذا كله مما هو معلوم عنه بالضرورة لمن اتفقوا معه ومن اختلفوا معه على حد سواء. ولكن ما قد لا يعرفه من تابعوه عن بعد هو أنه واحد من "أقلية" صغيرة، وربما متناهية الصغر اختزلت حياتها فيما هو عام وتضاءل لديها كل ما هو خاص.

لم يتأثر محمد السيد سعيد، مثله مثل قليل من المصريين بطغيان المصالح الخاصة، التي جرفت في طريقها قيما وأخلاقا وسلوكيات، باتت في يومنا هذا استثناء، ودمرت مفهوم المصلحة العامة، فانحسر الشعور به وتراجع ما يقترن به من أداء.

ظل، مع قليل في هذا البلد، قابضا على إيمانه بأنه لا نجاة لنا إلا عبر إصلاح يرسي القواعد والمعايير الموضوعية، التي تتحول الأوطان والمجتمعات في غيابها إلى أحراش يضيع فيها الضعفاء، ويعلو فيه صوت القوة الغاشمة المستمدة من مال أو جاه أو سلطة.

لم يتوقف عقله لحظة عن الحركة في زمن ساده الجمود، وهو يفكر في سبيل تحقيق حلم ألهمه طاقة فكرية، حتى في مرضه، مثلما ألهم هو آخرين من تلاميذه وأصدقائه وقرائه، سيحملون هذا الحلم بعده. ولذلك لم يمت حلم محمد السيد سعيد.. ولن يموت.

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩.

عرفت محمد السيد سعيد قبل أكثر من أربعين عاما، في خريف عام ١٩٦٨ عندما دخل إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية طالبا بالسنة الأولي، أما أنا فكنت من السابقين بعامين في كلية شعر من فيها دائما بقدر غير قليل من التميز، لأنهم في واحدة من كليات القمة، ولأن القمة تدور علومها حول الدولة سياسة واقتصادا. وبقدر ما كانت الأحلام داخل الكلية عريضة للغاية على المستويات العامة والخاصة، فإن جماعة منها كانت على اعتقاد راسخ، أبعد من هذا، بأن لديها القدرة على تغيير مصر وربما العالم، وهؤلاء رغم تواضع الرؤى بعد ذلك أصبحوا فيما بعد من القيادات والنجوم، على مستويات مختلفة بين الحياة الأكاديمية والإعلام ومؤسسات الدولة والوزراء والسفراء.

ضمن هذه المجموعة دخل محمد السيد سعيد، وبسرعة شديدة، وكان لي فضل اكتشافه مبكرا عندما وقف معلقا في واحدة من ندوات جمعية الفكر الاشتراكي، التي كنت أتولى قيادتها، شابا نحيلا متواضع المظهر، ولكنه واثق من نفسه إلى درجة أخاذة، بالنسبة لطالب كان قد دخل توا إلى الجامعة قادما من بور سعيد، فلم يكن شخصا عاديا. وبعد أن تعرفنا في ذلك اليوم صارت بيننا صداقة استمرت مهما بعدت بنا الأيام وافترقت بنا السبل والمدن والأفكار.

في البداية كان الزمن ساعتها هو ما عرف بفترة ما بعد النكسة، حينما أفاق جيل كامل على هزيمة يونيو١٩٦٧ بعد إيمان راسخ بقدرة القائد والزعيم على توحيد الأمة، وقيادة العالم الثالث، وقلب العالم ومن قبله مصر رأسا على عقب. كانت الجامعة هي المكان الذي جرت فيه أخصب أنواع المناقشات والحوارات للإجابة على الأسئلة المستعصية حول: لماذا جرى ما جرى، وكيف يمكن الخروج منه؟ وأيامها انقسمت الجماعة بين رأيين: أن الهزيمة جاءت لأننا –مصر والمصريين– لم نكن ثوارا واشتراكيين كما يجب أن يكون الثوار والاشتراكيون، والآخر أن الطريق المصري كله كان على خطأ، حتي ولو جرى الخلاف بعد ذلك عن الخطأ وأحيانا الخطيئة. وقاد الرأي الأول إلى الحاجة إلى المزيد من الثورة والاشتراكية، والثاني إلى العودة إلى أوضاع ما قبل الثورة أو الإسلام السياسي.

كان كلانا مع الرأي الأول، وكان محمد

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ٢١ سبتمبر ٢٠٠٩.

النبيل

د. جمال عبد الجواد
مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

عندما التقيته لأول مرة في عام ١٩٨٣ في الولايات المتحدة، تفاجأت بهذا الشاب الرقيق المهذب المتواضع، بعد أن كانت صورته التي رسمتها في ذهني كتاباته، وما سمعته عنه من أصدقائه تختلف كثيرا عن ذلك. كنت تائها في ذلك البلد البعيد الذي أزوره لأول مرة، بعد أن وصلت في ساعات الليل الأولى، عندما كان الموظفون المسئولين عن استقبالي وترتيب شئون إقامتي قد غادروا لبيوتهم. بحثت عن اسمه في دليل التليفون فجاء مسرعا. شعرت بحرج بالغ عندما أصر هو وزوجته الأستاذة الجامعية المرموقة، على أن أبيت الليل على الفراش الوحيد في منزلهما، ترددت كثيرا في قبول العرض الكريم، فسهرنا حتى ساعات الصباح الأولى نتحدث في كل شئ قيم ورائع ونبيل، فكانت ليلة من أروع ما يمكن.

ليس لدى شك في أن محمد السيد سعيد هو أنبل من عرفت من أبناء جيله، ومن أنبه العقول التي أنجبتها مصر خلال العقود الماضية. تواصلت صداقتنا وتواصل كرمه واستمرت حواراتنا، التي كانت بالنسبة لي منبعا للمعرفة، ومحفزا على المزيد منها. تجاورنا في السكن، فكنا نمضي ساعات طويلة بالليل نتحاور في كل شئ يتعلق بالعلم والعالم والوطن. لم يكن ثناؤه يريحني لأنه كان يثقلني بأعباء، مخافة أن يكتشف أني لست على ما يظن من الدراسة والمعرفة. اختلفت كثيرا مع آراء له، لكن وجاهة آرائه ومنطقها القوي كان دافعا من أجل امتلاك ناصية الحجة، لأعيد إشهارها في وجه حجته، فأظفر بحوار أرقى من سابقه. تمنيت عليه أن ينقطع للقراءة والتأليف، فمن الخسارة أن ينشغل مثله بحياتنا السياسية والثقافية الغنية بالتفاهة، التي يمكن لكثيرين غيره أن يملؤها بما يناسبها من الصخب والضجيج غير المفيد في أغلب الأحوال. لم تعجبه النصيحة فكان في موقع المقدمة والقلب لمشروعات ومبادرات في المجتمع المدني والصحافة. فترك بصماته عليها بقدر ما تحتمل هي وبقدر ما تحتمل الأوضاع في مصر.

أمسح دمعة سالت رغما عني لأني لن أراك ثانية، ولأني لم أكن بجانبك في أيامك الأخيرة، رحلت إلى رحمة لا تضيق، وتركتنا نكابد وحشة الفراق.

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩.

فى مديح الاستثنائي وإبداعاته وفضائله

نبيل عبد الفتاح
رئيس مركز التاريخ بالأهرام

حاولت البحث عن صفة تليق بمقام المفكر العلم وصديقنا الغالي الحبيب محمد السيد سعيد، فلم أجد من الصفات المتداولة، ما يكافئ بعضا من ثرائه الروحي والفكري والانساني، وعطائه المميز علي صعد عديدة. رجل نسيج وحده، ربما يكون هذا النعت الكلاسيكي في البلاغة السردية لكبار المجددين في الفكر والثقافة المصرية المعاصرة، هو الأقرب للوصف الخارجي للتركيبة الإنسانية والفكرية والمسلكية الفذة لمفكر استثنائي بلا نزاع، ولا أي مبالغة، يمثل إحدى العلامات الأبرز للحياة الأكاديمية والثقافية والسياسية المصرية والعربية منذ عقد السبعينيات من القرن الماضي، عندما أطل بكتاباته وخطابه السياسي الرصين والعميق، والذي يحمل رؤي تبدو يسارية الانتماء وعدالية الروح، ولكنها لغة خاصة واستثنائية، ومغايرة للخطابات اليسارية الخشبية والمجانية التي تبدو وكأنها تمتلك وتحتكر مفاتيح كشف وفهم العالم وقوانينه ومعادلاته، بل وتملك حقائقه المطلقة كانت ولا تزال وستظل نصوص المفكر الاستثنائي محمد السيد سعيد، تمتلك من الذكاء والتوهج والتألق والعمق ما جعلها دائما حية فوارة بالاكتشافات، ومؤصلة بالعمق والتركيب.

كانت ولا تزال وستظل تعبيرا عن الاستثنائي المختلف شأن نظرائه المبدعين والاستثنائيين في مجالي البحث الأكاديمي، والفكر النظري، علي ندرتهم مصريا وعالميا، هؤلاء الذين يمتلكون من الموهبة والتألق وعمق المعرفة والذكاء ما يجعلهم أكبر من أن يكونوا جزءا من التقاليد والسراطات من السراط المستقيم البحثية والفكرية السائدة. إن ذكاء وعمق العزيز الغالي محمد كان أكبر من الالتزام الأيديولوجي والسياسي، الذي يليق بالعاديين من رجال السياسة والفكر، لأن روحه الوثابة، وحسه الاجتماعي والفلسفي الرفيع، وعقله النقدي والتحليلي والتركيبي، تحول دونه والانخراط في ذهنية الجموع الأيديولوجية المختلفة، واللغة الديناصورية المحنطة، التي يعيد إنتاجها الكرادلة والكهنة والأتباع! كيف لهذا العقل النقدي والتحليلي الكبير منذ تكوينه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والأهم تربيته الذاتية، وتكوينه الخاص الذي صاغ مكوناته ومساراته وفروعه المعرفية، منذ المرحلة الثانوية ثم أثناء دراسته الجامعية.

كان ولا يزال وسيستمر نسيج وحده بلا نزاع مفكر تعرف على الأصول الفلسفية، والسوسيولوجية للمدارس الكبرى وتفرعاتها في عالمنا بدأب وبلا كلل، وبروح نقدية تعامل معها، ولم يأخذ آراء ونظريات كبار الفلاسفة والمفكرين كأنها مسلمات، شأن غالبية الباحثين والكتاب الذين يتشدقون بالمصطلحات والتنظيرات كجزء من الماكياج اللغوي والاصطلاحي للخطاب الأكاديمي أو الثقافي، وربما دون فهم أو استيعاب لدي بعضهم، وربما انصياع وتماهي من بعض المدرسيين الذين يرون في مصطلحات وتنظيرات الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع الأوروبيين والأمريكيين، تبدو وكأنها إنجيل مقدس، أو نصوص واجبة القداسة والقبول والطاعة.

العزيز الغالي محمد السيد سعيد كان استثنائيا ولا يزال وسيظل، ومن ثم كان الهاتك الأكبر للقداسات الفكرية والفلسفية وفي مجالي العلوم السياسية والاجتماعية، حيث جميع الأفكار أو الأنساق النظرية أو الفكرية أو المفاهيم، تظل دائما موضوعا للتفكير والتحليل النقدي والتفكيكي، والأخذ والقبول، والنبذ أو الرفض، أو التقويض، فلا قداسة لنظرية أو مفهوم.. الخ، ولا حرمة للأفكار النسبية.

مفكر مبدع واستثنائي، يصدق عليه تعبير قيل عن المسرحي الألماني اللامع برتولد بريخت بأنه رجل اللغة الضاري، ربما كان التعبير صادقا وموحيا علي واحد من أبرز ما قدمه عزيزنا الغالي محمد السيد سعيد رجل اللغة الضاري، اللغة الخاصة والاستثنائية المترعة بالعمق الوصفي والدلالي، والجماليات المائزة للسرد الفلسفي والبحثي والسياسي والسوسيو-ثقافي.

الحساسية والذائقة اللغوية لنصوص محمد السيد سعيد وبحوثه ومقالاته تشير إلي عمق المعرفة والاطلاع، بالإضافة إلي قدراته الإبداعية علي إنتاج المصطلحات والصياغات الخاصة القادرة علي الوصف والتفسير والتأويل والتركيب لمقارباته للواقع الموضوعي في حياتنا، فضلا عن المنطقة، وما يجري في عالمنا المعولم من تحولات كبري، كان من القلة الاستثنائية التي استطاعت فهم والتقاط روح عصرنا! استطاع محمد السيد سعيد، وبعض من أبناء جيله السبعيني الاستثنائي في تاريخ مصر والمنطقة كلها، كسر اللغة القديمة الميتة، والبلاغة السردية الجوفاء التي وشمت ما قبله، وفتحت ولا تزال خطاباتها الأكاديمية والثقافية والسوسيولوجية الأبواب عن سعة لفهم ما يحدث داخلنا، وبنا وحولنا.

رجل ومفكر استثنائي ضمن جيل استثنائي، وهو استثناء في الاستثناء، دون مبالغة أو إفراط في الوصف أو التقديم. خذ بحوثه الرائدة عن الشركات المتعددة للجنسيات، أو عن النظام العربي في أعقاب حرب الخليج الثانية وغزو العراق، وأقرأ وأستمتع بعمق المعالجة المنهاجية، والتحليلات الرصينة الباكرة عن تحولات الإقليم والعالم.

من فضلك اقرأ مجددا مساهماته البالغة التميز في التقارير الاستراتيجية العربية، ومقالاته وبحوثه في السياسة الدولية، والمجلات الفكرية الكبرى في مصر والمنطقة العربية، مفكر استثنائي وكبير المكانة ورفيع

المقام في السلسلة النادرة للمثقفين والمفكرين والباحثين، الذين استعصوا علي الانكسار لأي سلطات غاشمة في بلد متخلف بامتياز، ووسط دوائر متنامية من الجهل النشيط – إذا شئنا استعارة أحمد بهاء الدين– ورؤى وتصورات ماضوية تنتمي إلي إرث القرون الوسطي البائدة.

الاستثنائي لا ينصاع ولا يخاف ولا يصمت، لأن الاستثنائي شجاع، وينطق بكلمات الحقيقة في مواجهة الانحطاط السلطوي، أو هؤلاء الذين يريدون سرقة روح الإنسان المصري وإخضاعه رهينة الاعتقال، باسم رؤى وتأويلات قديمة تحاول ارتداء أثواب القداسة السلطوية.

الاستثنائي كمحمد السيد سعيد رجل تحليل وتفكيك ونقد، وتركيب، صانع معرفة ووعي، ومن ثم هو بلا نزاع أحد بناة مصر الجديدة المستقبلية من خلال خطابه السياسي الإصلاحي والنقدي منذ أواخر عقد السبعينيات وحتى الآن.

لا يمكن إزاحة جيل السبعينيات، لأنه الجيل الذي استوعب وأصل مسارات المغامرة الحداثية والتحديثية للدولة، الأمة المصرية، وهو الذي كشف ابتساراتها وعواراتها ومظالمها.

محمد السيد سعيد هو أحد أكبر أبناء هذا الجيل قامة وفكرا، لأنه الأكثر قربا إلي المواريث الفكرية والفلسفية والتاريخية لتجربة بلاده وأمته المصرية التي هي أكبر من نخبها السياسية والدينية علي اختلافها وانجازاتها، وهو وقلة من جيله الأكثر نقدا ومعرفة بالاختلالات التكوينية في نسيجها، في التركيبة الثقافية–الاجتماعية والسياسية للمصريين مفكرو جيل لديهم من المعرفة والخبرة والتجارب والانفتاح علي آخر ما في عالمهم من معرفة وتطور، ولديهم معرفة بصيرة بتاريخ بلادهم والمنطقة.

تحية لصديق حبيب وزميل عمل تعلم منه الكثيرون من زملائه وأقرانه، وكان علامة علي إنجاز بارز لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. ومفكر استثنائي، وإنسان يمتلك من الذكاء والطيبة والدماثة والحساسية، والنزوع الإنساني والعدالي، ما يجعله نسيج وحده بلا نزاع.

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩.

وداعا يا بن مصر

د. مصطفى الفقي
رئيس لجنة العلاقات الخارجية
بمجلس الشعب

فقد الوطن واحدا من أغلى أبنائه وأشدهم إخلاصا له. إنه المفكر الراحل الكاتب الصحفي د.محمد السيد سعيد، الذي شغلته منذ باكورة حياته قضية العدل الاجتماعي، ورفض الظلم الإنسانين، والرغبة في إعلاء قيمة الوطن، وتعظيم عطائه للإنسانية كلها.

لقد كان مفكرا لامعا وكاتبا موهوبا وإنسانا رقيق الحاشية مستقل الرأي مستنير الرؤية، وعندما أوفده "الأهرام" مديرا لمكتب في إحدى العواصم الأوروبية الكبرى، لم يستسلم للوظيفة البراقة والحياة المثيرة، وظل قلبه مع الوطن وعقله مع فقرائه وبسطائه، ولم يغير كلمة واحدة من سطور عقيدته الفكرية وانتمائه السياسي، فقد اقتربت منه في لحظاته الصعبة، عندما كان يدفع ضريبة الرأي سجينا من أجل الحرية وحبيسا يطلب العدالة، يومها تدخلت دفاعا عنه وحاولت ما استطيع لإبراء ساحته، إيمانا مني بقيمته ومعرفة بتاريخه.

إنني أعزي الوطن في واحد من أفضل رجاله، وأعزي أسرته الأصغر وهي "الأهرام" و"مركز الدراسات الاستراتيجية"، الذي كان واحدا من رعيله الأول، وأقول له نم قرير العين يا فتى في تراب وطنك المقدس، ولن يكون لك من بعده أي "بديل".

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩.

نموذج النقاء الفكري

د. علي الدين هلال
أمين الإعلام
بالحزب الوطني الديمقراطي

على مدار ما يقارب أربعين عاما عرفت في د. محمد السيد سعيد سمات المفكر الرصين والباحث المقتدر من أول كتاب له في منتصف السبعينيات عن الشركات متعددة الجنسيات.

وخلال سنوات طويلة لم يتخل عن النقاء الفكري والصفاء العقلي والاستقامة الخلقية، التي جعلت منه نموذجا فريدا للمثقف المصري، الذي عاش متطلعا إلى التغيير نحو مجتمع أفضل.. وساعيا إلى التبشير بمستقبل لم يولد بعد.. ومدركا أن متطلبات إنجاز هذا الحلم يتطلب الأخذ بأسباب العلم، وبمنهج الجبهة الوطنية العريضة التي تجمع وتوحد فارتفع عن صغائر الأمور، ولم يدع أحدا يستدرجه إلى معارك صغيرة أو جانبية.

رحمه الله رحمة واسعة.

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩.

العذوبة والعذاب

حلمي سالم
رئيس تحرير
مجلة "أدب ونقد"

عرفت محمد السيد سعيد فى السنوات الأولى من سبعينيات القرن العشرين، أثناء الحركة الطلابية المصرية الشهيرة (٧١-٧٢-١٩٧٣) كان واحداً من الثلة المتميزة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، التى أخرجت للحياة السياسية والثقافية المصرية والعربية مجموعة لامعة من المفكرين والمبدعين، أذكر منهم: عبد المنعم سعيد وطه عبد العليم محمد، ويسرى نصر الله وهانى شكر الله وإبراهيم نوار وأحمد عبد الله وصلاح أبو نار وغيرهم.

أتصف محمد السيد سعيد، بين هذه الثلة المباركة، بهدوء الروح ودماثة الخلق ونفاذ العقل فكان مزيجاً فريداً من صحوة العقل ورحابة القلب وصلابة النفس وظل هذا المزيج المدهش يصاحبه طوال مشواره الشاق العميق، حتى فى أحلك اللحظات حينما سجن أثناء الثورة الطلابية فى أوائل السبعينيات، ثم حينما سجن فى أواخر الثمانينيات بسبب التضامن مع عمال الحديد والصلب (حيث لقى تعذيباً مبرحاً تلقاه بقوة الروح وسلامة النفس وإيمان المؤمنين).

وعلى الرغم من أرضيته الماركسية الواضحة، فإنه لم يجعل هذه الماركسية قفصاً حديدياً يتجمد ويتحجر فيه، بل استلهم من روحه الواسعة وعقله الحى المتحرك المتسائل ما جعله ينقذ نفسه من «الدوجما» (العقيدة الجامدة المقدسة) التى وقع فى أسرها الكثيرون، وينقذ نفسه كذلك من «الاتساع» المنفلش الرجراج الذى وقع فى أسره الكثيرون، فصار كما وصف نفسه مرات «ليبراليا» بين اليساريين، ويساريا بين «الليبراليين».

وفى الوقت الذى أخذت فيه الليبرالية عديداً من ثلة الاقتصاد والعلوم السياسية بعيداً، حتى صاروا دعاة للنظام العالمى الجديد وأصبحوا خبراء تقنيين يضعون خبرتهم وعلمهم فى خدمة النظام السياسى، سعياً لتجميل وجهه وترشيده وإنقاذه من المآزق أو الغرق، ظل محمد سعيد السيد سعيد محتفظاً فى عمقه العميق بخيط وطنى وطبقى لا يزول، وكان هذا الخيط الوطنى والطبقى الأصيل فى روحه الأصيلة هو الذى يضبط خطاه كلما اهتزت هذه الخطى في الطريق، فإذا أخذه الاتساع الليبرالى الحضارى إلى الاقتراب من جماعة كونبهاجن (الداعية إلى الحوار مع إسرائيل) فى أواخر التسعينيات دفعه هذا الخيط إلى الابتعاد عنها حينما اشتم أنفه الصحى رائحة غير صحية وإذا ذهب الاتساع الليبرالى الحضارى إلى الانخراط فى إنشاء منظمات ومراكز حقوق الإنسان رده هذا الخيط إلى التضامن مع عمال الحديد والصلب إلى درجة أن يسجن ويعذب، وإلى جعل علاقته بحركة حقوق الإنسان علاقة «تماس» لا علاقة «اندراج» وإذا زج به الاتساع الليبرالى الحضارى إلى تخوم فكر العولمة والكوكبية والأسواق المفتوحة أعاده هذا الخيط إلى نقد الكولونيالية الجديدة وفضح «الليبرالية المتوحشة» وإدانة الاستعمار ما بعد الحداثى وإماطة اللثام عن احتلال الروح والعقل.

هكذا تكون للحياة السياسية والفكرية مثقف عميق هو محمد السيد. ولم يفقد أثمن ما فى الماركسية البعد الطبقى. ولم يفقد أثمن ما فى الديمقراطية معاداة الاستبداد والإيمان بالتنوع.

جمعنى مع محمد السيد سعيد، بعد مرحلة الثورة الطلابية، عمل مشترك أكثر من مرة، أبرزها كان فى مركز القاهرة لحقوق الإنسان فى الأعوام الثلاثة الأولى من الألفية الثالثة، كان أهم ما صنعناه معا آنذاك كتاب «حكمة المصريين» الذى كنت منسقه، وشارك فيه عشرة من كبار الكتاب المصريين، فى مجالات مختلفة، كان الكتاب فكرته هو، وكان الغرض منه تبيان أن المصريين قادرون على تجاوز ما هم فيه من تخلف ومحنة، نظراً لتاريخهم العريق فى الإنجاز والسبق، ونظراً لجدل الوصل والقطع فى مراحل مصر التاريخية المتعاقبة، ونظراً للطاقة الخلاقة المخزونة فى باطن المصريين المعاصرين، وهى الطاقة التى تحاول الأنظمة المستبدة دائماً دفنها فى التراب. وقد شارك سعيد فى الكتاب بفصل مهم، ثم صدره بمقدمة بديعة.

بعد ذلك شاركت معه فى النقاشات والحوارات التمهيدية لإنشاء صحيفة « البديل» حيث تم التحاور مع نخبة من الزملاء حول ورقة العمل التى أعدها متضمنة طبيعة الصحيفة الجديدة ودورها وهدفها المأمول (وإن لم أستطع المشاركة العملية حينما صدرت الصحيفة).

فى كل ذلك كان الرجل هو الرجل نفسه: ذكاء فى القلب، حيوية فى العقل، سلامة فى الفطرة، سواء فى مشواره الفكرى، بدءاً من كتابه التأسيسي « الشركات متعددة الجنسيات» مروراً بكتابه «النظام العربى بعد حرب الخليج» حتى كتابه «الديمقراطية المحتجزة». أو فى مشواره الصحفى، بدءاً من مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام، مروراً برئاسته لمجلة «رواق عربى» ومجلة «أحوال مصرية» وجريدة «البديل» أو فى مشواره التنظيمى، بدءاً من الأحزاب اليسارية مروراً بالمنظمة المصرية لحقوق الإنسان ومركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان وحركة «كفاية».

هذا المزيج المركب الفريد، كان يطير بجناحين لم يلحظهما الكثيرون. الجناح الأول هو معرفته العميقة بالتراث العربى الإسلامى. وهى المعرفة التى أنقذت ثقافته السياسية من جفاف الفكر السياسى الجاف، وأنقذت رؤاه «العولمية» من أن تكون غصوناً تتخبط فى الهواء، بدون جذور أو أصول.

والجناح الثانى هو الطيف «الشعرى» الذى يتنفس فى كتاباته وأبحاثه ولغته وأدائه «على الرغم من العلمية الشديدة والموضوعية الواضحة فى قلمه الحاد» وهذا الطيف الشعرى هو الذى ضخ كتابته بنسغ من الرواء والطراوة والماء أفلت به من «خشبية» العلم و «صخرية» الموضوع لتغدو الكتابة عجينة متماسكة ولدنة من «علانية» الفكر و «خفاء» الأدب.

إلى هذين الجناحين اللذين طار بهما محمد السيد سعيد «التراث العربى والروح الشعرية» تعود المسحة «التصوفية» التى وسمت الرجل بين أقرانه الكاتبين، لينضم بذلك إلى زمرة المفكرين التقدميين أصحاب«الشطح الصوفى» الجميل، سواء فى الرؤيا أو فى الأداء.

عاد جثمان محمد السيد سعيد إلى تراب بور سعيد، مسقط رأسه فاكتملت «الاستعارة» الكبرى فى حياته: بلد «المقاومة» الباسلة ضمت إليها ابنها الذى «قاوم» الغلظة والظلم والقبح. بلد «الصيد» ضمت إليها فتاها «صائد» الأفكار والرؤى والخاطرة. بلد «المنطقة الحرة» ضمت إليها رجلها الذى نعته الشامل هو «الحرية»: حرية الناس وحرية الوطن وحرية العقل.

يا محمد السيد سعيد: طب نفسا أيها الدمث الصلب وسلم على محمود أمين العالم ونبيل الهلالى ورجاء النقاش ومحمود درويش وطاغور وجبران.

نقلا عن جريدة «الأهالي» في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

مثقف فى مواجهة الرئيس

يساريا كان بين الليبراليين وليبراليا بين اليساريين، أو هكذا وصف نفسه؛ فكان نموذجا راقيا لثقافة الاختلاف. حتى هؤلاء الذين تطاولوا عليه حينما كان يسأل عن السبب كان يكتفى بهز كتفيه مبتسما وهو يقول ببراءة طفولية: "مش عارف بيعملوا كده ليه؟"!.

لقد أجرينا أكثر من حوار مع المفكر الراحل، ومازلت أذكر أن أحد هذه الحوارات كان فى بيته بالعجوزة، وكان كريما أكثر من اللازم فى الضيافة وفى الإجابات وفى التحمل أيضاً، حتى أننى أثقلت عليه ربما لانجذابى لتحليلاته العميقة. وقد أخذنا الحوار بتدفقه وحلاوته وتحليلاته العميقة متجاوزا بنا الساعتين دون أن أتنبه، فإذا بالرجل فى رقة تصل إلى حد الاستعطاف يقول: "كفاية بقى أنا تعبت"؛ فتنبهت ولم أسامح نفسى على نسيانى مرض الرجل.

لقد رحل محمد السيد سعيد سريعا وفق أجل مقدور، دون أن يتم الستين بعد صراع طويل مع مرض السرطان، تاركا فراغا كبيرا لا يملؤه غيره، فى زمن يشهد رحيل النبلاء تباعا دون سابق إنذار، وقد ضاقوا ذرعا بنظام استعصى على التغيير. كان قد اشتد عليه المرض خلال عامه الأخير؛ فقررت الحكومة الفرنسية علاجه على نفقتها وظل هناك حتى قرر العودة إلى مصر عقب تدهور حالته الصحية.

لقد كان محمد السيد سعيد محط إجماع واحترام القوى السياسية فى مصر، ولعلنا نستشهد فى ذلك بحضور ممثلين عن كل التيارات السياسية والحقوقية وجميع المؤسسات الصحفية فى العزاء الذى كان مقاما فى مسجد عمر مكرم. ولكن لنبدأ الحكاية مجددا من غرفة صغيرة لمنظمة حقوقية وليدة، مرورا بإحدى غرف التعذيب الوحشى فى معتقلات زكى بدر. لنبدأها من هنا إذن من حيث أنّات المعذبين فى الداخل والخارج، وإكليشيهات الاتهام الرسمى المعمول بها منذ مائة عام دون أن يمسها تطوير من قبيل "التآمر على قلب نظام الحكم" وغير ذلك. ففى الأول من أغسطس ١٩٨٩ أضرب عمال الحديد والصلب واعتصموا داخل مصنعهم، ولم يكن الزمان كالزمان ولا الحال مثل الحال؛ فقاد وزير الداخلية اللواء زكى بدر بنفسه عملية اقتحام المصنع، وانتهت العملية بمصرع عامل وإصابة العشرات، وألقى القبض على أعداد كبيرة من العمال، نُكّل بهم وعُذّبوا عذاباً فوق طاقة البشر. وفى اليوم التالى تم اعتقال محمد السيد سعيد وأمير سالم، عضوي مجلس الأمناء، وهشام مبارك ومدحت الزاهد، بتهمة الانضمام إلى تنظيم سرى يهدف إلى قلب نظام الحكم!! ووسط أنّات التعذيب كان الجميع يرددون جملة واحدة: "أنقذوا محمد السيد سعيد".

كان الجلادون قد تفننوا فى تعذيبه انتقاماً مما كتب وترهيباً للمنظمة الحقوقية الوليدة، ولم ينقذه إلا زيارة عاجلة قام بها النقيب مكرم محمد أحمد -نقيب الصحفيين وقتها- إلى السجن، والذى ما إن عاين آثار التعذيب على جسد محمد حتى صرخ من الغضب، وهدّد وتوعد، فرُفع العذاب عنه، وأطلق سراحه مع الجميع.

أذكر اللقاء التاريخى الذى دار بين محمد السيد سعيد والرئيس مبارك فى لقائه مع الكتاب والمفكرين ضمن فعاليات معرض الكتاب قبل أربعة أعوام من الآن، والذى دافع فيه السعيد عن كرامة المصريين ودعا إلى تعديل دستورى شامل. وحين سألته عن تفاصيل الواقعة تعفّف وقال لا أريد التحدث مجددا فى هذا الموضوع؛ لئلا يحسب علىّ أننى أتاجر به. فقلت له هى شهادة للتاريخ يلزمها التوثيق لمن لم يسمع أو يرى، كما أنه من الضرورة بمكان أن نقولها؛ لأنها انطوت على مطلب جوهرى ومتجدد؛ فنزل الرجل على رغبتي وحكى بتدفق غريب وذاكرة متألقة تفاصيل ما حدث وقال:

"كان الرئيس يتحدث عن الانفجار السكانى كمعوّق للتنمية، فقال وحيد حامد تعقيبا على كلام الرئيس مبارك عن الانفجار السكانى إن الدولة لو تكفلت بأول طفلين فقط لأى أسرة مصرية لألزمت المواطنين بتحديد النسل. فيما قلت أنا إن الانفجار السكانى ليس هو المعوّق الأساسى، فقد حسم هذا الأمر مؤتمر السكان فى بوخارست عام ١٩٧٤ وإنما المشكلة هى مشكلة تنمية، وأنه بالإمكان تحويل التعداد السكانى لطاقة فى إحداث التنمية، لكن المشكلة أن التنمية توقفت والتطوير الاقتصادى والاجتماعى توقف، ونحن لم نحقق إنجازا اقتصاديا كبيرا كما يتصور الكثير؛ والسبب أن المواطن المصرى لا يشعر بكرامته. وذكرّته بأنه تم القبض على خمسة آلاف مواطن فى العريش رجالا وشيوخا وأطفالا، تم إطفاء السجائر فى أجسادهم وتم صعقهم بالكهرباء، وهؤلاء مصريون وقلت له هذه مسئوليتك الشخصية لأن إحدى وظائفك الدستورية هى الدفاع عن الحقوق الإنسانية للمصريين وهذا سحق لكرامة المصريين.. وهو يعود أساسا إلى أن البناء السياسى والدستورى لا يكفل الحماية الحقيقية لهم لأن دستور ١٩٧١، استبدادى ولذلك فنحن نريد دستورا جديدا تماما، لا يمكن التحايل على بنوده، يوازن بين السلطات ويكفل استقلال القضاء ويخفف من سلطات رئيس الجمهورية، فالوضع الحالى يعطيك سلطات مطلقة وأبدية وهذا شيء مخيف لأى أمة؛ لأن معناه أن الأمة بأكملها وبكل أجيالها مرهونة بإرادة شخص واحد، وأنت رجل عاقل ورصين، ألا تخشى أن يأتى بعدك رجل آخر غير رصين أو قليل العقل وتكون هذه السلطات فى يده ويفعل ما يفعله بالناس وبالبلد".

فتدخّل الرئيس مبارك قائلا: "لا والله أنا أفوّض رئيس الوزراء فى كثير من السلطات"، فقال محمد السيد سعيد: "بغض النظر عن التفويض، اسأل رئيس الوزراء عن سلطاته الدستورية، فهو لا يتمتع بأى سلطة مستقلة عن رئيس الدولة وهذا معناه أن البلد تعيش موقفا خطيرا يا سيادة الرئيس. أنا أتحدث عن كرامة المصريين؛ فالمصرى كريم وعملاق وابن أمّة وتاريخ ليس لهما مثيل فى العالم، ونريد معاملة المصرى أفضل مما يعامل النظام الإسرائيلى المواطن اليهودى، ولذلك أدعو لتغيير سياسى ودستورى شامل فرد الرئيس مبارك قائلاً: "انت بتقول خمسة آلاف مواطن من العريش تم القبض عليهم .. دى سينا كلها ما تجيش خمسة آلاف"! وحينما انفض اللقاء قال الرئيس مبارك "نصيحتى لكم حتى من بعدى أن تحافظوا على الاستقرار وما نرجعش لما قبل عام ١٩٥٢ حكومة كل ستة أشهر" فقال محمد السيد سعيد: "يا ريس المشكلة قبل ١٩٥٢ لم تكن في الدستور الديمقراطى، لكن في الانقلاب على الدستور الديمقراطي، احنا شفنا ٧ انقلابات دستورية في مصر، وهذا هو السر في مشكلة عدم الاستقرار قبل ١٩٥٢، وأنا لدي تصور لسيادتك فى ورقة مكتوبة عن إصلاح سياسى ودستورى"، فقال له الرئيس: "الورقة دى تحطها في... جيبك وأنت متطرف.. وعلى فكرة بقى أنا بأفهم أحسن منك". وكانت أمارات الغضب بادية على وجهه.

وطبعًا بعد هذا اللقاء.. لم تتم دعوة محمد السيد سعيد للمشاركة فى أي معرض كتاب لاحق، إلى أن لقي ربه.

نقلا عن جريدة «العربي الناصري» في ١٨ أكتوبر ٢٠٠٩.

لكن الحلم يبقى

د. أحمد يوسف أحمد
أستاذ العلوم السياسية
بجامعة القاهرة

عرفت محمد السيد سعيد فى مرحلة كنت أسمى نفسى فيها نصف طالب ونصف عضو هيئة تدريس، فقد كنت معيدا حديثا، فى القسم الذى كان يدرس فيه ما زال أمامى طريق طويل من الدراسة والبحث العلميين حتى أثبت نفسى فى هيئة التدريس بالقسم، وشاء حظى أن تكون بداية تعاملى كمعيد مع دفعة محمد السيد سعيد التى لم يكن يفصلها عن دفعتى سوى دفعتين، ومن خلال الدروس العملية التى كان يتعين علىّ القيام بها عرفت فى محمد السيد سعيد الصفات التى سبق وأن أشرت إليها، والتى لا أعتقد أنها توفرت لاحقا لسواه، وإن اقترب منها عبر عشرات السنين من التدريس فى قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عدد لا يزيد على أصابع اليد الواحدة.

تغيرت مياه كثيرة بعد ذلك فى نهر الحياة فى مصر وغيرها، وتلاطمت أمواج التغيرات التى شهدها الوطن بفعل فاعل، بالإضافة إلى ما شهده العالم من تغيرات جذرية غير متوقعة. تداعت التجربة «الاشتراكية" فى مصر فى عهد السادات، وبصفة خاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولم يكن محمد السيد سعيد على أى حال يعتبرها تجربة اشتراكية حقيقية، وسقط النموذج السوفيتى ومعه نماذج الحكم الشيوعى فى أوروبا الشرقية، وبدا وكأن الهيمنة الأمريكية تطول الجميع، وحدثت تحولات فكرية لدى معظم أفراد النخبة الفكرية المصرية ومنهم محمد السيد سعيد، غير أنه بينما بدا التحول بالنسبة للكثيرين أقرب إلى "الانقلاب"، فإن تحول محمد السيد سعيد كان تطورا إلى الأفضل. هكذا حافظ على رؤيته الفكرية وإطاره النظرى وأدواته المنهاجية وإن خلّص هذا كله من أى انحيازات أو مواقف مسبقة، ودخلت الليبرالية الحقة إلى منظومته الفكرية عبر اقتناع حقيقى وليس لمجرد استكمال "الديكور" الفكرى كما فعل الكثيرون، وإن نطق سلوكهم بعكس ما يقولون.

هكذا ظل محمد السيد سعيد نصيرا للإنسان فى أوسع معانيه. لم ترهبه سلطة، ولم يُغْره منصب، فكان نموذجا لمفكر حق على وطنه أن يخلده، وكنت أقول لنفسى ولغيرى فى معرض الحديث عن التطور الذى لحق بفكر محمد السيد سعيد إنه «محمد سيد أحمد» جيله، كما أن «محمد سيد أحمد» هو «محمد السيد سعيد» فى جيله، فكلاهما نجح فى أن يحتفظ بمنطلقاته الفكرية ونهجه التحليلى دون أن يجعل من أى منهما قيدا بأى حال من الأحوال على حرية فكره، وانطلاقه إلى الآفاق الرحبة لفهم ما يجرى فى الوطن والعالم من حوله.

تمتع محمد السيد سعيد بهدوء لافت فى كل نقاشاته ومساجلاته الفكرية، وأحسب أن هذا الهدوء نتيجة طبيعية لصفاء النفس والتصالح معها، كنت تسمعه فى بداية أى نقاش فيخيل إليك من فرط هدوئه أنه بسبيله إلى أن يقول كلاما عاديا لمجرد سد الفراغ، فإذا بهذا الهدوء ينقلك من فكرة لأخرى حتى يصل بك إلى خلاصة مبهرة. لم أسمع منه يوما شيئا مكررا، وكان معنى هذا أنه لم يكن يتحدث أبدا لمجرد الحديث، وإنما ليقول ما هو جديد ومفيد، وبدا هدوءه وأدبه الجم فى الحوار غير متسقين فى كثير من الأحيان مع المواقف الصارمة غير المهادنة التى كان يتبناها دائما فى كل ما يؤمن به من قضايا، ولهذا لم يكن محمد السيد سعيد أبدا موضوعا لملاسنات ومشاحنات فكرية، إذا جاز التعبير، لأن أطروحاته كانت تتسم دائما بالمنطقية، ناهيك عن أدبه فى طرحها، وهكذا نال السلطة على سبيل المثال ما نالها من مواقفه، لكن أحدا لم يجرؤ على أن يشير إليه بأصابع اتهام أو بشبهة تجريح، بل كانت النتيجة دوما هى الاحترام لشخص لم يخلص إلا لقضيته دون سواها.

لم أختلف معه فى مواقفه الفكرية إلا قليلا، لكننى لم استرح منذ البداية لمشروعه الأخير -رئاسة تحرير صحيفة يومية- وكان ظنى أن مفكرا بهامة محمد السيد سعيد وطبيعته لم يكن يصلح لمنصب رئيس تحرير صحيفة يومية تحتاج جهدا إداريا فائقا، ودخولا فى تفاصيل لم يتعود عليها، وحرصا على اجتذاب قارئ قد لا يرضيه المحتوى الفكرى الرصين بالضرورة أكثر مما ترضيه أخبار الفن أو الرياضة، وقلقا على التوزيع والإعلانات، وكنت أحسب أن محمد السيد سعيد مطلوب بإلحاح لمشروع فكرى نهضوى رائد يمكن أن تعبر عنه دورية فكرية عميقة تصدر شهريا.

صحيح أن رسالتها لن تصل بالتأكيد إلى المواطن العادى الذى دافع سعيد دوما عن قضاياه، لكن مردودها سوف يكون فى التحليل الأخير لصالحه بالتأكيد.

شغلتنا الحياة فلم نعد نلقى الأحبة والأصدقاء والزملاء إلا فى المنتديات الفكرية، ومناسبات العزاء فى فقد من نعزهم، ولذلك كانت المرة الأخيرة التى التقينا فيها منذ عام كامل تقريبا فى أبو ظبى بمناسبة المنتدى السنوى لصحيفة الاتحاد الإماراتية.

كانت علامات المرض اللعين قد بدأت تظهر عليه، لكنه بدا محتفظا بكامل هدوئه وسكينته مع نفسه، متألقا فى كل ما أدلى به من أفكار أثناء المداولات كعادته، ودار حديث بين بعض الزملاء بعيدا عنه عن مسئولية الدولة فى علاج شخص أعطى للوطن عمره، ولو صح أن الحكومة الفرنسية قد تحملت تكاليف علاجه فى الفترة التى قضاها فى باريس فسوف يكون هذا مصدر خزي لكل مصرى. بدأت ألاحظ بعد ذلك اختفاء إسهاماته الفكرية الثاقبة فى المنابر التى كان يكتب فيها، وكنت متابعا دءوبا لها، وتوجست من هذا نذيرا بسوء ما هو قادم.

المحزن أن الملايين من أبناء مصر البسطاء لا يعرفون بالتأكيد ذلك الابن البار الذى سخر فكره من أجلهم، مع أنهم بالتأكيد يعرفون أدق التفاصيل عن أتفه لاعبي كرة القدم والفن فى مصر، وهم معذورون، فنصفهم على الأقل أمى، وآلة الإعلام الجهنمية تجذبهم بعيدا عن كل ما هو جاد ومثمر، من أجل نصيب أكبر من كعكة الإعلانات التى باتت تعكس أكثر المصالح توحشا.

لكن يقينى غير محدود بأن محمد السيد سعيد لن يكون مجرد شهاب مرق فى سماء مصر بسرعة يشير إليها عمره القصير، وإنما هو أساس صلب من أسس نهضة قادمة وتغيير إلى الأفضل يحلم به الجميع، حتى وإن لم يسمعوا يوما عن إنسان يدعى محمد السيد سعيد، ولد فى مصر، وتربى على أرضها، ونهل من عبقريتها، وصاغ حلما لغد أفضل، يضعه فى موقع الصدارة فى تاريخ هذا الوطن مع أولئك الذين حملوا مشاعل التنوير والنهضة والعدل.

نقلا عن جريدة «الشروق» في ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩.

سعيد .. وكرامة المثقف

سلامة أحمدة سلامة
رئيس مجلس تحرير
جريدة "الشروق"

قبل عدة أسابيع كنت في فراش المرض، حين زارني صديق من كبار الأطباء عاد لتوه من باريس، وقال إنه عرف أن الدكتور محمد السيد سعيد يُعالج في باريس منذ عدة أشهر من السرطان. وإنه استفسر عن حالته ففهم أن الأمل فيها ضعيف. كان ذلك بعد أن اعتزل رئاسة تحرير صحيفة «البديل» قبل أن يزحف المرض ويثقل عليه، وكانت المفاجأة التي أدهشتني وأحزنتني حزنا عميقا هي أن علاج الدكتور سعيد يتم بمنحة فرنسية أي على نفقة فرنسا وليس على نفقة بلاده، وأن زوجته الزميلة الصحفية التي رافقته في رحلة العلاج كان عليها أن تدبر حياتها ببعض أعمال تعينها على البقاء في باريس قريبا من زوجها.. ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك أو قبل ذلك، وهل تكفلت الدولة أو المؤسسة التي يعمل بها بإكمال نفقات علاجه؟

ولكن حين حملت الأنباء نعي هذا الزميل النبيل، أدركت حجم الضنى والمعاناة التي يتعرض لها مفكر صاحب قلم متمكن وكاتب نزيه، لم يمد يده يوما للسلطة ولا لمنافعها وثمارها.

كان محمد السيد سعيد شخصية هادئة الطبع نادرة المثال. احتل وضعا فريدا بين أقرانه في مجال الدراسات والأبحاث السياسية في مركز الدراسات بالأهرام. وتميز فيه بالأمانة وسعة الاطلاع والتواضع، مع جرأة في الحق. فلم يكن أبدا ممن تغريهم شهوة المال أو المنصب. ولم يكن ممن يكتمون كلمة الحق مهما كانت العواقب.

أنفق محمد السيد سعيد الكثير من جهده وعلمه في الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، وشارك في إصدار الدوريات والدراسات التي تشرح وتناقش وتدافع عن قضايا حقوق الإنسان، وعن الفئات المهمشة في المجتمع، وعن المسجونين والمعتقلين بغير محاكمة، ودعا إلى التمسك بالمواثيق والقوانين الدولية التي تضمن الحريات وتلتزم الدول باحترامها.

وحين أنشأ مع بعض زملائه وأصدقائه من اليساريين جريدة "البديل"، كان يعتقد أن الصحافة التي تنحاز إلى الفقراء والطبقات الضعيفة، وتكشف عن انحرافات الفساد التي تغرى الثروة بها، سوف تحقق من الرواج ما يجعلها قادرة على المنافسة والصمود والوقوف في وجه طغيان رأس المال والماكينات الإعلامية الثقيلة. ولكن الواقع المثير والمحزن أن الطبقات الفقيرة حين يُسلب منها العلم والمال، تُسلب منها أيضا "القدرة على الفعل والمواجهة والإصرار على التمسك بالحقوق".

لم يكن محمد السيد سعيد من الذين تلتوى الأقلام بين عقولهم وأصابعهم، موالاة أو مجاراة أو تملقا. ولم يكن من الذين تغريهم المناصب وهو أحق بها، فلم تكن الصحافة بالنسبة إليه مصدر رزق، ولا موقعا لاكتساب الشهرة والنفوذ.. ولكنها كانت نافذة للتواصل مع الناس ومخاطبة عقولهم ومشاعرهم.. حملت كتاباته دائما رنة الصدق والإخلاص وعبرت عن قناعات مستقرة وإيمان بحق الشعب في المساواة والرفاهية والديمقراطية والحق في حياة حرة كريمة.

عانى محمد السيد سعيد آلام المرض والبعاد والغربة، سعيا وراء العلاج من مرض قاس عنيد باهظ التكلفة.. لا تطيقه الدولة إذا لم يكن ممن يروقون لها، إلا بكثير من الرجاء والوساطة والإلحاف الذي تأباه كرامة المثقف، خاصة حين يكون العلاج في الخارج. ولا تحتمله المؤسسة التي ينتمي إليها إلا قليلا. بينما يعتصر المرض ما تبقى من جسم الرجل وكيانه.

وهنا تبدو عظمة الدولة التي تحترم الثقافة وتعلي من قدر المثقفين، كما فعلت فرنسا حين أبدت استعدادها للمساعدة في علاج مفكر ومثقف مصري بارز مثل محمد السيد سعيد. وهي للأسف مأساة كثير من الفنانين والكتاب والمبدعين الذين يعملون وينتجون ويسهمون في الحياة الثقافية بعيدا عن اهتمام السلطة وبريقها، وهم يقفون وحدهم في العراء دون سند أو وسيط. فهو ليس قريبا من السلطة ولا هو من دراويشها والساعين في دهاليزها. وفي الأسابيع الأخيرة كنت أقرأ عن حالات عدد من الفنانين والصحفيين الذين كانوا يلتمسون العلاج على نفقة الدولة. ولكن إنفلونزا الخنازير استغرقت الاهتمام كله!

لقد ذهب سعيد إلى لقاء ربه.. فنجاه من ذل الهزيمة والمرض.. تاركا وراءه عشرات الكتب والدراسات والمقالات التي تنبئ عن عقل واع وإحساس جارف بحب هذا الوطن.. فليشمله الله بواسع رحمته.

نقلا عن جريدة «الشروق» في ١٣ أكتوبر ٢٠٠٩.

الملهم
دمث الخلق

عبد المنعم المشاط
أستاذ العلوم السياسية
بجامعة القاهرة

تعرفت على العالم الجليل المبدع دمث الخلق منذ سنوات في الكلية وفي الولايات المتحدة، ومن خلال المؤتمرات الدولية والإقليمية في مصر والولايات المتحدة وآسيا وغيرها. كان مهموما ليس فقط بمستوى التفكير العقلي لمثقفي مصر والوطن العربي، ولكن أيضا بمصر والمصريين، لقد تلقى أفضل أنواع المعارف من خلال قراءاته وتأملاته ودراسته، وأبدع أيما إبداع في كتاباته ومؤلفاته، ربما تكون كتبه أكثر الكتب التي يرجع إليها الباحثون في النظام الدولي والمنظمات والمؤسسات فوق الدول، وكذلك القضايا المنهاجية والفلسفية.

لقد كان أفضل من يؤثر على نفسه، لقد شارك -برغم ضراوة مرضه- في المؤتمرات والمناقشات وورش العمل المتعلقة بالتغير والإصلاح والتنمية والبناء، كان يضحي بنفسه في سبيل التعبير عن الحقيقة والبحث عنها، كان جادا في زمن أفل فيه نجم الجادين وكان جريئا في زمن تضاءلت فيه الشجاعة العلمية والجرأة العملية.

كان العالم القدير صديقا مقربا لأسرتي، وكانت زوجتي تكن له احتراما خاصا جدا، اشترك معي أثناء البعثة الدراسية بالولايات المتحدة في الارتقاء بأطفالي، ثم أثر في ابنتي الدكتورة رانيا، بأن اختار لها تخصص الاقتصاد الذي أبدعت فيه، كان صريحا ووفيا ومخلصا في نصائحه، وكان كريما مع الآخرين، لم يحمل لأحد ضغينة، كان مسالما برغم وضوح وحدة مواقفه الوطنية والفكرية، كان حادا في الحق، ومتمسكا به ومدافعا عنه، كان مثقفا في زمن ندر فيه وجود المثقفين المخلصين والملتزمين بقضايا الوطن والأمة.

عاصرته أثناء مرضه، وكان راضيا بقدره، وكان آملا -كإنسان رقيق الحس- في الشفاء. رحم الله العالم القدير والصديق الوفي، الذي حرمنا منه رغما عنه.

نقلا عن جريدة «الأهرام» في ٨ أكتوبر ٢٠٠٩.

وفى العام السادس والثلاثين من الحرب..
استشهد محمد السيد سعيد

ضياء رشوان
خبير بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

عندما وقع العدوان الثلاثى الغادر عام ١٩٥٦ وقاومت بورسعيد ببسالة هجمات القوات البريطانية والفرنسية المعتدية بما جعلها مثالا للصمود فى التاريخ المصرى كان الطفل محمد السيد سعيد قد جاوز لتوه سنواته الست.

وعندما وقعت نكسة يونيو ١٩٦٧ واحتلت قوات العدو الإسرائيلى سيناء كان محمد السيد سعيد لا يزال فى بورسعيد طالبا فى المرحلة الثانوية، حيث شاهد بعينيه كيف دمر العدوان الإسرائيلى مسقط رأسه مرة أخرى؟. وعندما تدافع طلاب جامعات مصر وفى مقدمتهم جامعة القاهرة للتظاهر ما بين عامى ١٩٦٨ و١٩٧٢ للاحتجاج على الهزيمة وحالة اللاحرب واللاسلم، كان الفتى الصغير فى قلبها وهو لم يكد يتجاوز أعوامه العشرين. وعندما عبر جنود مصر البواسل قناة السويس فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ليحطموا أسطورة العدو الذى لا يقهر ويعيدوا الكرامة الوطنية الضائعة كان محمد ذو الأعوام الثلاثة والعشرين واحدا منهم. وعندما قبل الرئيس السادات قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر، لم يكن الجندى محمد وهو يدفع الثمن الغالى الذى قدمه طائعا من أجل عودة الكرامة وتحرير الأرض، يعرف لا هو ولا أحد آخر فى مصر أن الطلقات التى وجهها ورفاق سلاحه نحو قوات العدو، ستكون هى الأخيرة وأن المدافع ستسكت بعدها لمدة ستة وثلاثين عاما حتى اليوم.

وبعد أن سكتت المدافع فى الحرب الوطنية الكبرى بأعوام أربعة عندما قرر الرئيس السادات الذهاب للقدس عام ١٩٧٧، ثم وقع معاهدة الصلح مع العدو عام ١٩٧٩ كان محمد الباحث الشاب النابغة بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية فى الصف الأول من المعارضين الكثيرين لهذا النهج فى إدارة الصراع مع الدولة العبرية، معتبرا إياه مهدرا ومضيعا لكل نضالات الشعب المصرى فى مواجهة الطبيعة العنصرية العدوانية لهذه الدولة. وعندما قام جيش هذه الدولة باجتياح لبنان وصولا إلى حصار بيروت عام ١٩٨٢، اجتاح الحزن والقهر محمد وهو فى بعثته للدكتوراه بأمريكا فأصيب بقرحة مزمنة فى المعدة جعلته يتقيأ دما، وكأنه يريد أن يشارك إخوته ورفاقه ضحايا العدوان نزف دمائهم على بعد آلاف الأميال منهم.

وعندما عاد محمد من بعثته ليواصل عمله بمركز الأهرام وإبداعاته الفكرية والبحثية واصل معها نضاله المتواصل من أجل وطن مستقل، ومواطن حر يتمتع بالعدل الاجتماعى وحقوقه الأساسية الاجتماعية والسياسية، فبدأ مع رفاق قليلين من مختلف مدارس الفكر والعمل فى مصر تأسيس حركة حقوق الإنسان المصرية الوطنية، التى ترسخت اليوم جذورها وتعددت وعلت أفرعها، بفضل جهود كثيرين كان جهده الدءوب من أبرزها وأهمها. وخلال ربع القرن الذى قضاه محمد فى مصر بعد عودته من البعثة ظل إبداعه الفكرى المتشعب الغزير يتواصل فى مجالات متعددة، ليتشابك مع نضاله الحركى المتواصل والمخلص، من أجل استقلال الوطن والعدالة الاجتماعية والحقوق الأساسية لأبنائه، ليشكلا معا حربا حقيقية مستمرة بدا أن الجندى محمد السيد سعيد قرر أن يواصلها، بعد أن فاجأه سكوت المدافع فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ العظمى التى كانت تمثل له تحقق كل هذا المعانى والأهداف، التى ظل يبحث عنها ويبذل كل ما يملك من أجل تحقيقها.

سنوات طويلة، ست وثلاثون منذ سكوت المدافع فى أكتوبر وست وعشرون منذ عودته من البعثة، مضت ثقيلة مترنحة تجتاح فى طريقها كل ما ظل محمد صامدا يحارب من أجل الحفاظ عليه أو إقامته دون أن يهتز إيمانه العميق بالنصر فى النهاية فى أى لحظة من هذا الزمن الطويل.

ظل محمد ينتقل من معركة إلى أخرى فى هذه الحرب الطويلة وصلابة المثقف العضوى الحقيقى ابن الطبقات الوسطى والفقيرة تلازمه وتحميه من زيغ هنا نحو مكسب مادى أو انحراف هناك نحو منصب رسمى، ومعها سانده مراس الجندى المصرى القوى المصمم على تحقيق الأهداف النبيلة التى خرج من بيته وترك أهله لكى يحققها لهم ولوطنه الحبيب. طالت المعارك وتعددت على الوطن وشعبه وعلى محمد الذى ظل دوما فى الصفوف الأولى الفكرية والحركية فى جبهة القتال الشعبى والنخبوى المتواصل ضد الاستبداد والفساد، وضياع حقوق المصريين الأساسية فى الداخل، واعتداءات العدو القديم الجديد -إسرائيل- على أشقائنا الفلسطينيين والعرب فى الخارج، وبينهما تهافت أداء مصر الرسمية فى الإقليم ومحيطها العربى بل تحالفها وتواطئها أحيانا ضد مصالح شعبها التاريخية وحقوق أشقائها القريبين.

ظل محمد يحتفظ طوال سنواته معاركه الكثيرة منذ أن سكتت المدافع، والتى هى جميعها معارك الوطن وأبنائه، فى قلبه وعقله وقلمه ولسانه بجرأة الجندى الذى حمل روحه مع رفاقه على أكفهم، وانطلقوا فى أكتوبر العظيم يواجهون عدوا متفوقا عليهم بكل المعانى المادية والعددية. كان أعداء مصر شعبا ووطنا فى داخلها وخارجها الذين واجههم محمد، ومعه شرفاء كثيرون معه فى معارك عديدة خلال تلك السنوات الطويلة، منذ أن سكتت المدافع على ضفاف قناة السويس دائما متفوقون فى العدد والعدة، إلا أن درس أكتوبر علم الجندى -المثقف، المفكر، المناضل- أن هذا لا يعنى بأى حال أن النصر سيكون لهم أو أن عليه أن يتراجع أو يتوقف ورفاقه عن القتال الفكرى والسياسى والمدنى ضدهم، فظل يقاتل معهم دون كلل وليس أمامه سوى الوصول إلى إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وفى عامه الأخيرين خاض محمد المثقف والمفكر والمناضل اليسارى، الذى ظل وفيا لمدرسته دون جمود بل بإبداع نقدى وتطويرى هائل، معركته الأخيرة من أجل إعادة صوت هذه المدرسة المصرية الأصيلة إلى مكانه الطبيعى على الساحة المصرية الإعلامية، فأسس صحيفة البديل اليومية التى أعادت صوت اليسار إليها بعد أن ظن كثير من الناس وتمنى قليل منهم أنه اختفى منها إلى الأبد.

ولم يشأ القدر بعد كل تلك السنوات الطويلة من العطاء والإبداع والنضال الخلاق للمثقف المثقف، المفكر، المناضل محمد السيد سعيد ابن بورسعيد الباسلة والحركة الوطنية المصرية الصامدة بكل أطيافها، أن يشهد لحظة الانتصار، التى عاش عمره ليراها لوطنه وشعبه وقيم العدل والمساواة وحقوق الإنسان، التى طال قتاله ونضاله وإبداعه من أجلها. إلا أن القدر كان أيضا رحيما بمحمد الرقيق الحاشية الرفيق بكل الناس، فقد من عليه بالحسنيين معا وإن فرق بينهما زمن طويل. فقبل ست وثلاثين سنة من سكوت المدافع فى الحرب، التى دخلها مع أبناء جيله نال أولى الحسنيين معهم ومع شعب مصر كله فى مثل هذه الأيام من شهر أكتوبر ١٩٧٣، بالانتصار الكبير الذى حققه جيشها الباسل على العدو الدائم الغادر. وبعد هذه السنوات الطويلة بعد سكوت المدافع من الحرب الممتدة التى خاضها محمد على كل الجبهات الداخلية والخارجية، نال الحسنى الثانية برحيله "شهيدا" من المرض والكمد والنضال والإبداع من أجل مصر نفسها، التى كان قد جهز نفسه للاستشهاد فى سبيلها قبل ستة وثلاثين عاما كاملة بلباس الجندى وسلاحه فى عبورها العظيم.

نقلا عن جريدة «الشروق» في ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩.

رحيل قبل الأوان

فريدة النقاش
رئيس تحرير
جريدة "الأهالي"

رحل الصحفى والكاتب محمد السيد سعيد عن عالمنا وهو فى أوج ازدهاره الفكرى وقمة عطائه، بعد أن أثرى حياتنا الثقافية والنضالية بإسهامات لا تنسى، فقد شارك مبكرا جدا فى مطلع الثمانينات من القرن الماضى فى تأسيس المنظمة المصرية لحقوق الإنسان التى شهدت فى ظل قيادته لها أغنى وأعمق إنجازاتها، وكان أن عاقبه الأمن عقابا قاسيا بعد أن أيدت المنظمة إضراب عمال الحديد والصلب، الذى قتلت فيه الشرطة العامل محمد عبد الحى عام ١٩٨٩، وجرى حينها إلقاء القبض على "محمد السيد سعيد" مع آخرين بتهمة التحريض، وتعرض لتعذيب وحشى فى المعتقل. وتواصل إسهامه فى إغناء حركة حقوق الإنسان ومنظماتها فى مصر وتأسيس أدبياتها ونسج علاقاتها الوثيقة مع حركة حقوق الإنسان العالمية، التى عاونت الحركة المصرية وشكلت حماية لها من البطش وأجبرت الحكم فى هذا السياق على إنشاء المجلس القومى لحقوق الإنسان، الذى يسعى الآن ليكون مجلسا قوميا بحق ومستقلا عن الحكومة ليتجاوز الحدود التى وضعتها له كديكور.

قليلون من أبناء جيل "محمد السيد سعيد" الذين ترعرعوا فى أحضان الحركة الطلابية والحركة الشيوعية فى سبعينيات القرن الماضى هم الذين اشتغلوا بالصحافة والفكر معا، وحافظوا مع ذلك على المستوى الرفيع فى الحالتين وهو أستاذ هؤلاء جميعاً .

حين عمل مراسلا لجريدة "الأهرام" فى واشنطن طور بسرعة مثيرة للإعجاب مهنة المراسل، وأخذ يغوص فى قلب المجتمع الأمريكى ويحفر بدأب ليلتقط أعمق دبيب لحركته الداخلية ويستشرف آفاق تطوره، دون أن ينسى -كما يفعل الكثيرون الآن- الدور الإمبريالى لأمريكا فى العالم ولم يغرق فى الموضوعات السهلة والمستهلكة والطريفة، فكانت رسائله تشكل معرفة جيدة لقراء الجريدة اليومية، وإضاءة للعلاقات العالمية المعقدة، وأساسا موضوعيا لتشكيل المواقف .

لم يقنع "محمد" بموقعه المريح في مؤسسة "الأهرام" الحكومية كنائب لرئيس مركز دراساتها، وإنما اندفع بكل طاقته ليؤسس جريدة جديدة يومية لليسار معارضة وشجاعة هى جريدة «البديل»، وبعث فيها من روحه ووهج عقله المبدع حياة معتمدا على جيل جديد من شباب اليسار المفعم بالأمل وبالطموح والذى دربه "محمد" وفرح به ومنحه الكثير من نفسه ومن خبراته وثقافته حتى أنه حين قرر أن يترك رئاسة تحرير الجريدة بعد أن أخذ السرطان يداهمه اختار لها شابا واعدا وموهوبا ليرأس تحريرها هو "خالد البلشى" الذى شهدت مجلة "اليسار" بداية تألقه كمحقق يسارى ومهنى بامتياز قبل أقل من عشرين عاما. وواصل "خالد" طريق "محمد السيد سعيد" وتحولت "البديل" على يديه إلى صوت للاحتجاجات الشعبية الواسعة بحكم أنها جريدة يومية، إلى أن تكالبت عليها الأزمة المالية والصغائر لتغلق أبوابها.

وسوف يكون العمود اليومى الذى كتبه "محمد السيد سعيد" فى جريدة "البديل" على امتداد عام أو يزيد قليلا موضوعا للدرس الأكاديمى، لا فحسب كمصدر غنى للمعلومات وعمق التحليل وصواب النظرة، وإنما أيضاً كدرس فى النزاهة والاستقامة السياسية والأخلاقية والمهنية رغم التقلبات التى كان يقع فيها بين الحين والآخر، وتناقض المواقف أحياناً أخرى.

ولن ينسى قراء "البديل" تلك السلسلة من الدراسات النادرة التى نشرها فيها "محمد" عن المملكة العربية السعودية، من قصة التأسيس ونشوء الحركة الوهابية إلى الدور المدمر الذى لعبته الأسرة الحاكمة، مستعينة بالثروة النفطية الطارئة لتغزو العالمين العربى والإسلامى بأفكار التطرف والتكفير والرؤية الجامدة الحرفية للدين بالعقوبات البدنية والوجه البدوى، الذى صبغت به الإسلام وأسهمت بذلك فى تعطيل الاجتهاد والإصلاح وتجديد الفكر الدينى وتحرير النساء، ولهذا كله جاءت المنطقة العربية فى ذيل قائمة الدول من حيث توفر الحريات وحقوق الإنسان فيها، لأنها تنتهكها أشد الانتهاك من التعبير للتفكير للاعتقاد وتحاصر النساء وتفرض عليهن الوصاية والرقابة، وكانت الثروة النفطية بذلك نقمة على العرب، بدلا من أن تكون نعمة لهم تؤدى إلى التطور والتقدم والحداثة والديمقراطية مع دور محورى فى السياسة الدولية، بل إن المنطقة سقطت بفضل السياسات السعودية ثم المصرية بعد ذلك فى مستنقع التبعية للولايات المتحدة الأمريكية.

ومن سوف يدرس المنظومة الفكرية التى تحرك "محمد السيد سعيد" فى إطارها سوف تدهشه الروح الخلاقة المجددة التى ألهمته ويكفى أن يتوقف المرء أمام مفهومه للثورة الذى تجاوز به الإطار السياسى الاقتصادى، ليدرج فيها كل الإنجازات الجديدة فى ميادين العلم والطب والهندسة والرياضيات والتطور التكنولوجى، داعيا كل المناضلين من أجل تغيير العالم إلى الأفضل على طريق تجاوزات الرأسمالية وصولا إلى الاشتراكية لوضع كل هذه الإنجازات الثورية فى الاعتبار، لا فحسب باعتبارها مجرد أدوات للتغيير، ولكن أيضا كأفكار وإضافات للعالم الشاسع للأدبيات الثورية.

وسوف تحسن زوجته الصديقة "نور الهدى زكى" صنعا لو أنها جمعت تراثه فى كتب تضئ للأجيال القادمة طريقها.

الرحيل قبل الأوان مؤلم... والفراغ الذى سيتركه محمد السيد سعيد أشد إيلاما.. فليرحمه الله ويرحمنا.

نقلا عن جريدة «الأهالي» في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

تاريخ من الدفاع عن حرية الصحافة

يحيى قلاش
عضو مجلس نقابة الصحفيين

ليست مصادفة أو غلوًا أن يجتمع كل من عددوا أبرز صفات د.محمد السيد سعيد فى حياته أو بعد رحيله على نبل أخلاقه ونبل سلوكه ونبل مواقفه وكذلك نبل تعبيره عن خلافه مع أشخاص أو أفكار، فدائما له وجهة نظر واشتباكات وانحيازات فكرية وسياسية وإنسانية، ولكنه كان يشعرك بأنه بلا خصوم. هو من قلة يجود بهم الزمان على مهل، تراه تشعر بالاطمئنان يتسرب إليك، تسعد لو اتفقت معه، ولا يبرحك الأمان لحظة إذا خالفته الرأى، لو صادقته كأنك ملكت كنزًا، ولو عرفته عن قرب يتملكك إحساس دائم بالاحترام والتقدير، ولو عملت بجواره فى عمل أو مهمة تندهش لكل هذه الطاقة وهذه القيمة المتوهجة فى كائن شديد الإنسانية والتواضع والحب لكل من حوله. ورغم أنه كان يملك وجهاً هادئاً شفافاً فيه مسحة من براءة آسرة، لكن داخله يحتوى على بركان من القلق والتوتر.

يمتلك قدرة خارقة على إنتاج الأفكار الخلاقة، لكنه يطلقها وكأنه يحررها من الأسر، فتخرج لتعيش بعيداً عنه بعد أن نفخ فيها من روحه وأكسبها الحياة والقدرة على التنفس والنمو.

غادرنا محمد السيد سعيد فجأة رغم مرضه الطويل، فشعرنا برحيله بأن كل النبلاء الذين سبقوه بالرحيل فى السنوات والأيام الأخيرة قد ماتوا الآن، محمد عودة، ونبيل الهلالى، وإبراهيم شكرى، وعزيز صدقى، ومراد غالب، ومحمد سيد أحمد، وكامل زهيرى، ويونان لبيب رزق، ومحمد يوسف الجندى، ورجاء النقاش، ورءوف عباس، وعبدالوهاب المسيرى، وصلاح الدين حافظ، ويوسف شاهين، وأحمد عبدالله، وحامد العويضى، ومجدى مهنا، ومحمود عوض، وأحمد ثابت، وسيد زهران، وسامى خشبة، ويوسف أبورية، وسعد زغلول فؤاد، وأحمد فؤاد سليم، وبيومى قنديل.

نعم، شعرت بأن رحيله هو إشهار بموت عصر وحلم ومشروع، فقد أخذ محمد السيد سعيد من كل هؤلاء طرف خيط كان ينسج به مشروعاً فكرياً بحجم أحلام كل من أحبوا هذا الوطن، لأنه كان يؤمن بأن المبادئ ليست بنت الأيديولوجيا مهما كانت قيمتها، لكنها بنت القيم الإنسانية العليا، وكان الوطن عشقه والمواطن البسيط وسيلته وغايته.

وقد استطاع ببساطة وعبقرية أن يعقد مصالحة بين الأكاديمى والصحفى، وبين المفكر وجماهير الناس من البسطاء، وبين ضمير المستقل وانحياز السياسى صاحب وجهة النظر، وبين الخصوصية الوطنية العاشقة ورحابة الثقافات المختلفة، وبين العقل الذى يحسب لكل أمر حساباته الدقيقة الموزونة والعاطفة التى يؤدى استبعادها فى كثير من الأحيان إلى موت الإنسان بداخلنا، بين صراحة الرأى وحدته وود وألفة تصون العلاقات وتحفظ دفء المشاعر ولا تتطوع أبدا بخسارة الأصدقاء.

عرفت محمد السيد سعيد منتصف ثمانينات القرن الماضى فى بداية تأسيس المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وأستطيع أن أقول بضمير منصف، إنه إذا كان الدكتور محمود عزمى هو رائد حقوق الإنسان والحريات العامة وحرية التعبير فى مصر، فالسيد سعيد هو الذى حول هذا الفكر الطليعى أو البناء النظرى إلى ثقافة عامة، وإلى حقوق تستحق التضحية من أجلها وانتزاعها، ومن أجل هذه القضية كان اعتقاله لمدة شهر عام ١٩٨٩ وتعرضه للتعذيب، بعد أن حاول زكى بدر وزير الداخلية فى هذه الفترة أن يبتر فى المهد هذا التيار الذى قاده سعيد، ووجهت إليه تهمة التوقيع على بيان حقوقى يدين اقتحام قوات الأمن مصنع الحديد والصلب وإطلاق النار على العاملين فيه أثناء إضراب عمال المصنع الشهير، وكان قد سبق كل ذلك حملة نشطة ودؤوبة، استخدم فيها كل وسائل التعبير التى تدين فلسفة العقاب الجماعى والتصفية الجسدية التى اعتمدتها وزارة الداخلية للتنكيل بالخصوم السياسيين من الجماعات الإسلامية التى كان يخالفها د.محمد فى الرأى والفكر، لكنه كان يدافع عن حقها فى التعبير والمحاكمة العادلة ورفض الإجراءات الاستثنائية.

وأتذكر كيف ثار أعضاء الجمعية العمومية للصحفيين التى ينتمى إليها، احتجاجاً على اعتقاله وكيف انتفضت مؤسسات المجتمع المدنى وكل رموز الثقافة والفكر، وأتذكر أيضا أنه تحت ضغوط هذه الاحتجاجات اتصل د.مصطفى الفقى مدير مكتب رئيس الجمهورية للمعلومات -فى ذلك الوقت- بزكى بدر ليخفف من احتقان الأزمة، ليفاجأ برد الوزير عليه بوقاحته التى اشتهر بها: "هو علشان دكتور اعتقله فى فندق خمس نجوم وأطبطب عليه". لكن فى النهاية انتصرت إرادة المثقف على بطش السلطة.

وفى كل المواقف التى كانت تتعرض فيها الحريات العامة وحرية التعبير -وفى المقدمة منها حرية الصحافة - لاعتداء أو محنة كان محمد السيد سعيد يتقدم الصفوف، هكذا وجدناه خلال مواجهة أزمة القانون ١٩٩٣ لسنة ١٩٩٥ الذى استهدف اغتيال حرية الصحافة، مشاركاً فى كل أعمال الجمعية العمومية للصحافة ومساهماً أساسياً فى كل الفعاليات التى ارتبطت بمواجهة هذه الأزمة.

ولا يمكن أن يسقط أبداً من الذاكرة النقابية دوره فى أعمال المؤتمر العام الرابع للصحفيين الذى عقد أعماله فى الفترة من ٢٣ - ٢٥ فبراير ٢٠٠٤ تحت عنوان "نحو إصلاح أوضاع الصحافة والصحفيين"، ومشاركته فى الأعمال التحضيرية له، التى سبقت ذلك بعدة شهور، عقب نجاح النقيب جلال عارف. وقاد إنجاز أول استطلاع علمى كبير وشامل شارك فيه ما يقارب ربع أعضاء الجمعية العمومية للصحفيين ينتمون لـ٤٧ مؤسسة وإصدارًا صحفياً، وقدم قراءة تحليلية رصينة لنتائج هذا الاستطلاع، أشار فيها إلى مشاركة الزميلين د.جمال عبدالجواد وصبحى العسيلى بوحدة استطلاع الرأى بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية للأهرام فى هذا الجهد.

وأستطيع أن أدّعى أنه كان لهذا الاستطلاع ولهذه القراءة التى قدمها تأثير كبير فى مسار نجاح هذا المؤتمر المهم، والتى قادت إلى حوار حقيقى كان يجرى للمرة الأولى مع الدولة حول هموم وقضايا حقيقية عن الصحافة وأحوال الصحفيين، بعد أن عكست نتائجه الرغبة العارمة بين الصحفيين المصريين فى إصلاحات عميقة فى بنية الصحافة المصرية على كافة الأصعدة والمستويات، وكشف أن من أهم أسباب المعاناة المهنية للصحفيين هى أسلوب ممارسة رؤسائهم للسلطة داخل المؤسسات الصحفية،

وأن الغالبية الساحقة من الصحفيين تريد التغيير والمشاركة فى اختيار رؤساء التحرير والتخلص من العوامل التى تؤدى إلى التسلط والفوضوية وعدم الكفاءة وغياب الرقابة، والمطالبة بتغيير أوضاع الصحفيين وتحقيق قدر أكبر من العدالة فى توزيع الأجور والرواتب، كما طالبوا بإصلاح تشريعى شامل وحق الحصول على المعلومات، وعدم تدخل الأمن أو رجال الأعمال فى شئون الصحافة، والتحذير من تعمد الخلط بين الإعلان والتحرير.

وانتهت قراءته إلى أن النقابة ملزمة بالمشاركة مع الدولة وجموع الصحفيين والمؤسسات الصحفية، بالتدخل لوضع حلول عاجلة للمشكلات المتفجرة التى كشف عنها الاستطلاع، وقال: "نحن جميعا مسئولون مسئولية مشتركة عن استعادة زمام الصحافة المصرية لموقعها القيادى فى الصحافة العربية وموقعها التاريخى فى الصحافة العالمية".

وهكذا استمرت مواقفه النقابية التى تنطلق من تقديس بلا حدود للحرية، فقد شاركنا اجتماعات الجمعية العمومية العادية فى مارس ٢٠٠٦ التى اكتملت لأول مرة فى تاريخ النقابة، من غير أن يكون على جدول أعمالها إجراء انتخابات، وذلك لمناقشة قضية إلغاء الحبس فى قضايا النشر، واعتماد لائحة جديدة لأجور الصحفيين، وكان فى مقدمة الذين شاركوا فى مظاهرتين احتجاجيتين أمام مجلس الشعب فى أبريل ويونيو ٢٠٠٦ لخروج التعديلات بإلغاء بعض مواد الحبس، وفقاً لمطالب الصحفيين، وعدم إقحام مادة «الذمة المالية» التى كانت تستهدف غل يد الصحافة عن تناول الفساد.

معارك محمد السيد سعيد فى الفكر والسياسة والدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان لا يمكن حصرها، وجميعها خرج منها منتصرًا أو زارعاً للأمل. حتى مرضه الأخير لم يثنه عن أن يغرس لنا شجرة وارفة اسمها جريدة "البديل"، أراد لها أن تثمر بعض الخير، وأن يحتمى بظلها الفقراء والكادحون. وأقل ما يمكن أن نقدمه لهذا الراحل النبيل الذى وهبنا فكره وقلقه وعذاباته وحبه لهذا الوطن، ألا تسقط تحت أى حجة هذه الشجرة التى رواها بدمه وأعطاها من روحه وعمره، وأن تعود "البديل" ليكون محمد السيد سعيد قد ذهب مرضياً كما عاش راضيا. وحرام أن نستسلم لموت النبلاء ورحيلهم لصالح القبح والفساد والتطرف وخيانة الأحلام والأوطان.

نقلا عن جريدة «اليوم السابع» في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٩.

صانع الأفكار

أكرم القصاص
كاتب صحفي

بالرغم من أنه كان يتعامل مع ما يمكن تسميته الصناعة الثقيلة للفكر، لكنه كان يفعل ذلك بإخلاص يحيل الأفكار والقضايا الصعبة إلى أفكار مفهومة وقريبة من الرجل العادى. أتحدث عن المفكر والكاتب الراحل محمد السيد سعيد الذى غادرنا بعد صراع مع المرض اللعين، ويشيعه أصدقائه وزملاؤه وتلاميذه اليوم إلى مسقط رأسه فى بورسعيد.

من الصعب أن تجد إجماعًا أو ما يشبه الإجماع على شخص فى هذا الزمن، الذى يميزه الخلاف الواسع بقدر ما تجد إجماعاً على شخص محمد السيد سعيد، الذى يتفق خصومه مع أنصاره وأصدقائه على أنه مفكر نبيل لم يُر مرة يضرب من الخلف أو يستخدم عيوب خصمه الشخصية فى خلاف فكرى. ويمكن أن ترى ذلك فى أراء زملائه داخل مركز الأهرام للدراسات السياسية الذين اختلف مع أفكارهم السياسية والاقتصادية وقضايا شائكة مثل التطبيع، ومع ذلك فإن الخلاف لا يمنعهم من الاعتراف بنبله وعمق أفكاره وتفكيره التقدمى المستنير.

وهو نموذج للمفكر الليبرالى بالرغم من أنه لم يخف أبدا يساريته أو تصوراته عن العدالة الاجتماعية والاقتصادية. وكان ليبراليا بالمعنى الواسع للكلمة التى يساء فهمها والتعبير عنها كثيرا. هى مبدأ وليس أيديولوجيا. يعترف بالحرية للجميع ويسعى إليها ويدافع عن الحق فى التعبير والتفكير والتجربة والخطأ. ولهذا تبدو الخسارة شديدة من رحيل مفكر بحجم الدكتور محمد السيد سعيد الذى نجح لسنوات فى تبسيط الأفكار الصعبة وإعادة مناقشة وطرح المسلمات بتوجيه الأسئلة المهمة، وهى ميزة للمفكر الحقيقى والكاتب المخلص للفكرة وليس للأرباح. وهو هنا أيضا مفكر حقيقى يسعى للكشف والإنارة والمعرفة والتعبير عمن يصعب التعبير عنهم.

أسس المفكر الراحل تجربة جريدة "البديل" التى بالرغم من أنها تعثرت فقد بقيت أحد التجارب المهمة فى الصحافة المصرية واليسارية فى الوقت نفسه. وبالرغم من أن محمد السيد سعيد نشأ وتطور داخل مركز الأهرام للدراسات السياسية، ولم يخض تجربة الصحافة الاحترافية بشكل مستمر، فقد أخلص فى تأسيس البديل، وتعامل معها على أنها ابنة له يرعاها ويحرص على منحها كل وقته وجهده. وقد شهدت بنفسى كيف كان وهو فى عز مرضه وآلامه يذهب للعلاج ويعود ليعمل أكثر من اثنى عشر ساعة فى الصحيفة التى اعتبرها مشروعا مهما وقضية تستحق العناء. ولما تشكلت التجربة لم يتمسك بالمنصب أو يصر على امتلاك خيوط السلطة بل تركها لجيل شاب يثق به. فى وقت يصعب على كثيرين ترك مواقعهم.. وبالرغم من إغلاق البديل فى ظروف سيئة، فقد تركت بصمة كبرى، وفريقا صحفيا محترفا يجيد المهنة ويحترمها ويدافع عنها.

وأذكر مرات عديدة كانت مقالات وأعمدة الراحل تمثل نوعاً من الرياضة العقلية، حيث لا تكتفى بالقشرة وتنفذ للعمق من خلال أسئلة وأطروحات كاشفة، تنفذ إلى القلب وتعالج المنطق. وأذكر حلقات وتحليلات قدمها سواء فى الأهرام التى حلل فيها ارتباط الفقر بالجريمة، وأثبت عدم وجود رابط وأن جرائم الفساد والرشوة ونهب المال العام والبنوك يرتكبها أثرياء بما ينفى الربط بين الفقر والجريمة. كما أنه قدم فى البديل تحليلات مهمة لحركات الاحتجاج وشباب الفيس بوك والإنترنت، وحركة ٦ أبريل وغيرها، لا تزال تمثل نوعاً من الفكر المنير والمستنير. كما أنه امتلك الشجاعة فى مواجهة المسئولين الكبار، وله قصة معروفة فى معرض الكتاب، عندما التقى الرئيس وتحدث أمامه بما يعتقد أنه يجب أن يذهب لصانع القرار، فأضاف لدور المثقف بعدًا مهمًا وعميقًا.

كل هذه الصفات التى يصعب أن تجتمع فى شخص واحد تجعل من المفكر الراحل الدكتور محمد السيد سعيد علامة فارقة، ودرساً يبدو غائباً فى زمن تحمه الفوضى والعشوائية فى كثير من النقاط. لقد بدا وكأنه ابن موت كما يطلق الناس على الأبناء المميزين الذين يختطفهم الموت. لكن العزاء أن الراحل النبيل موجود ومتواصل بأفكاره وسلوكه ونبله وإخلاصه. رحم الله المفكر الراحل، وألهم ابنه وزوجته وأصدقاءه وزملاءه وتلاميذه الصبر.

نقلا عن جريدة «اليوم السابع» في ١١ أكتوبر ٢٠٠٩.

ظاهرة حضارية

أمينة النقاش
مدير تحرير
جريدة "الأهالي"

حالفنى الحظ ذات مرة، حين رافقت الدكتور محمد السيد سعيد فى رحلة إلى المغرب للمشاركة فى الندوة حول موقف القوى السياسية العربية من حرب الخليج الثانية كان رفيق الرحلة الثانى هو المفكر محمد سيد أحمد.

اكتظت قاعة الندوة بشباب وشابات مغاربة، وأساتذة جامعات وحقوقيين فى المحور الذى تحدث فيه محمد السيد سعيد، أشار إلى دور الاستبداد، فى صياغة التقديرات الاستراتيجية الخاطئة، والتى عادة ما تعود إلى كوارث، وأحال بطبيعة الحال إلى قرار صدام حسين بغزو الكويت، وفسر التشويه الذى يلحقه الاستبداد بمسار الشعوب والأمم، وما كاد ينهى محاضرته حتى بدأ سجال جاد من القاعة حول الأطروحات التى حملتها محاضراته. لم يلحظ محمد السيد سعيد أن المغرب قبل أيام من قدومنا إليها، كانت تشهد مظاهرات مليونية تندد بالهجمات الأمريكية على العراق، وترفع صور صدام حسين كبطل شعبى وحدوى، حيث كانت القوات الأمريكية بالمشاركة مع الأسلحة الثقيلة العراقية تقصف من الجنوب العراقى لإخماد ما بات يعرف الآن بانتفاضة الشيعة فى النصف الأول من عقد التسعينات الماضى، كما تكشف الأمر فيما بعد، لم يكد محمد ينهى محاضرته العميقة التى طرحت أفكاراً لامعة، وصاغت أسئلة شائكة أكثر مما قدمت من إجابات، حتى بدأ الهجوم من المشاركين في الندوة وبدأت التصنيفات العصبية للحديث، سئل محمد السيد سعيد: كيف تصنف عملاً وحدوياً كالذى قام به صدام حسين فى الكويت بأنه غزو؟ ألم تتحقق الوحدة الأوروبية بقوة السلاح؟ ولماذا تعتبر الكويت دولة وهى جزء من حدود صنعها الاستعمار وفرضها علينا؟ أليست الدول العربية التى شاركت الولايات المتحدة الأمريكية فى إجلاء العراق عن الكويت تنفذ مخططا للهيمنة الأمريكية؟ ألا يحث الدين على أن تنتصر أخاك ظالماً أو مظلوماً؟

تلقى محمد السيد سعيد سيل الأسئلة المتوترة بهدوء تام وبابتسامته العذبة الواثقة بالنفس، وأخذ يدونها واحداً بعد الآخر، ثم بدأ يرد: الاستبداد وحش، ينزع عن الشعوب إنسانيتها ويحولها إلى شعوب تعيسة مقهورة ومستغلة ولا قدرة لها علىاختيار القرارات التى تتحكم فى مصيرها، والجيش العراقى الذى تم تحطيمه نتيجة

للغزو والإجلاء بالقوة عن الكويت كان رديفا مهما فى معركة استرداد الحقوق الفلسطينية والعربية، وأن العلاقات الدولية التى تشكلت بعد حربين عالميتين كارثتين، لم تعد تسمح بتجارب الوحدة التى تمت فى قرون سابقة بالقوة المسلحة، وأن الاستبداد الداخلى هو الذى يمنح الذرائع للتدخلات الخارجية، وأن الشعوب العربية لم تعد ملزمة بالاختيار بين نظم ديمقراطية حديثة وبين لقمة الخبز وأن كليهما حقوق لا غنى عنها، وأن التمتع بالحريات الديمقراطية هو الخطوة الأولى لكى تختار الشعوب حاكمها وتشارك فى صنع السياسات التى تحكم بها.

وفى النهاية رده على الأسئلة قال محمد السيد سعيد: لو أن المظاهرات المليونية التى خرجت فى أنحاء الوطن العربى طالبت «صدام حسين» بالانسحاب طواعية من الكويت، بدلاً من تشجيعه على البقاء، ما تحطم الجيش العراقى وما تم محاصرة العراق كما حدث فيما بعد، كما أن نصرة أخى وهو يظلم، تكون برده عن الظلم لا تشجيعه عليه. أنهى محمد محاضرته وسط صمت رهيب من القاعة، لم يصفق له أحد، فتقدم محمد سيد أحمد وأنا لنصفق له بحرارة شجعت أطرافاً متناثرة للحاق بنا، هكذا هو محمد السيد سعيد، أمتلك فى كل الأحوال شجاعة أدبية نادرة، وفهم أن الهدف الرئيسى لأى رسالة، هى زيادة وعى الذين يتلقونها لا السير وراء مشاعرهم الجارفة، التى يختلط فيها الخطأ بالصواب، وتحفيزهم على طرح الأسئلة، التى تدفع للتأمل والتفكير وتفسح الطريق لخيارات ممكنة.

اجتمعت لدى محمد السيد سعيد شجاعته الأدبية، واتقاد ذهنه، ونبوغ فكره لتجعله واحداً من «المؤسسين» الكبار، فكان هو أول من وضع الأسس الأولى للحركة المصرية لحقوق الإنسان، فأسس واحداً من أبرز مراكزها، هو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، وقدم عبر دراساته وبحوثه، رصدا لأخطر الظواهر التى تشكل انتهاكاً لتلك الحقوق، فقدم اجتهاداً خلاقاً فى سياق رصده لما أسماه ظاهرة «الضابط الفتوة» الذى يدير ظهره للقانون لانتزاع الاعترافات من ضحايا، وهى الظاهرة التى عانى منها محمد السيد سعيد نفسه حين تعرض للتعذيب بعد اعتقاله فى أواخر عقد التسعينيات، وقد أثمرت جهوده البحثية والتحريضية ضمن عوامل أخرى فى تعديل جوهرى فى السياسة العقابية السائدة لدى الأجهزة الأمنية، التى أذعنت للضغوط بإخضاع أفرادها لدورات تدريبية حول حقوق الإنسان، لرفع كفاءتهم المهنية فى الإثبات والتحرى وأمتد منهجه فى التأسيس ليؤسس منابر بحثية وصحفية برزت بينها مجلة «أحوال مصرية» وصحيفة «البديل» التى حرمها مرضه من أن تأخذ فرصة كافية لاستكمال رسالتها وفى كل تلك المنابر. مد محمد السيد خيمة وده لجيل جديد من الموهبين، منحهم خبرته ورعايته ووقته وتشجيعه وعلمه قبل محبته وأخذت تلك الخيمة تتسع لتظلل أجيالاً بعد أجيال، كثيرون منهم سوف يجدون أنفسهم الآن أمام مهمة صعبة هى مواصلة دوره التنويرى والبنائى ولعل الصعوبة تكمن فى القيام به دون دعم محبته وفى غيبة ركائز مساندته الإبداعية الخلاقة.

لعل محمد السيد سعيد رحل ضجراً من عالم يزرع القبح بدلاً من الجمال والاستبداد بدلاً من الحرية وتشييع الدمامة بدلاً من الوسامة التى طالما اتسمت بها روحه، لكن العزاء يبقى أن مثله يغيب فقط عن الأنظار، ويبقى كلما يممنا وجوهنا بحثاً عن عدالة وشوقاً إلى مساواة وكرامة وأملاً فى ابتكار أو تحضر وتوقاً إلى وسامة فى الروح والخلق والنفس.

لقد كان محمد السيد سعيد ظاهرة حضارية مركبة ستزداد وحشة بغيابها المادى، .. لكنه أبداً لن يغيب.

نقلا عن جريدة «الأهالي» في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

اضرب يا جبان

أحمد الصاوي
كاتب صحفي

كان صباحاً عادياً جداً.. استيقظ فيه فى الموعد نفسه الذى اعتاده كل صباح منذ كان فى الخدمة، لا يعرف لماذا فتح عينيه هذا الصباح يراوده الحنين لتلك الأيام، يتذكر حين كان يرتدى «البدلة الميرى» ويهبط من شقته ليجد سيارة «الشرطة» فى انتظاره، يؤدى له السائق تحية عسكرية بينما ينتفض البواب مهرولاً خلفه، ورغم أنه بواب مدنى.. فإنه كان يؤدى التحية العسكرية أيضاً.

يتذكر سيره فى الشوارع بخيلاء، وما كان لديه من قدرة على توجيه أوامر للمارة وأصحاب المحال، كان الحى برمته فى خدمته يخافه ولا يحترمه، لم يكن يكترث.. معتقداً أن الخوف يغنى عن الاحترام.

فى ذلك الصباح أيضاً تذكر ما كان يتداوله الناس عنه من أساطير، وقصة وضعه متهماً أمام باب مكتبه بدلاً من «مشاية مسح الأحذية» الصغيرة، كان مجرد تخيل البعض له وهو يدوس على إنسان راقد على الأرض، ويمسح حذاءه فى ظهره أو صدره، كفيلاً بنسج الرهبة فى نفوسهم ومنحه إحساس العظمة الذى كان ينتشى به.

راهن على الخوف حتى أخرجته حركة الشرطة من الخدمة، ففقد القدرة على إرهاب الناس، كما تخلى بنفسه عن الاحترام، حتى زملاؤه فى الخدمة تجنبوه، أغلبهم لم يكن راضياً عن أسلوبه فى العمل.

لم يبق له من طقوس الصباح سوى موعد النهوض المبكر، وفنجان القهوة، ونظرة من شرفة المنزل على الشارع الذى تنفس بعد خروجه للمعاش، وصاحب كشك الزهور الذى ارتاح من إجباره على إرسال زهور مجانية لمجاملات «الباشا».. وأخيراً إحساس بالحسرة والندم يقاومه كثيراً بإلحاح على المكابرة.

هذا الصباح أخذ قهوته وتأبط صحفه واتجه إلى الشرفة.. فى البدء قرأ الخبر: «رحل محمد السيد سعيد» وقعت عيناه على الخبر، فركز فى قراءته باهتمام، بينما يأتيه صوت الفقيد من بعيد يصرخ فيه: «اضرب يا جبان.. اضرب يا جبان».. تذكر كيف كان هذا الرجل الذى تحتفى به الصحف وتخلع عليه صفات الفيلسوف والمفكر والكاتب والإنسان، أحد مساجينه.. قهقه عالياً وسعل وهو يتذكر كيف كان يضربه ويسحله ويهين كرامته، يسبه بالأب والأم والدين والملة..

لوهلة شعر بقدر من الزهو، لكنه حين طالع باقى الصحف، فوجئ بالاحتفاء الذى يلقاه من صحف حكومية وحزبية ومعارضة.. «الأهرام» الرسمية تنعيه بكل قياداتها، تخلع عليه صفات المناضل والمقاوم والإنسان والفارس والنبيل والشريف والمعلم والمفكر والمبدع والوطنى، والصحف الحزبية تزايد على الأهرام فى خلع الصفات وذكر المحاسن، والصحف الخاصة تسير على الدرب نفسه.

سأل نفسه: كيف اتفق هؤلاء على رجل واحد؟ إذا كان وطنياً ومفكراً فلماذا اعتقلوه؟ لماذا طاردوه؟ لماذا أطلقوا يدى فى التنكيل به وهتك كرامته؟

كان يتنقل بين الصحف، ثم يقوم ليقلب القنوات الفضائية المصرية والعربية، حتى شبكة الأخبار الأوروبية.. الجميع ينعيه ويعدد مناقبه ويحتفى بمآثره، لحظتها فقط استوعب الدرس جيداً.. أهان كرامته، فإذا به يصعد أعلى مراتب الكرامة والاعتزاز بالذات، أصبح محمد السيد سعيد الآن جثمانا مسجى تحت الأرض.. لكنه يعيش فى أفئدة محبيه وعقول تلاميذه، بينما يجلس هو فى شرفته يتنفس الهواء كالأحياء ويتناول القهوة كالأحياء ويقرأ الصحف كالأحياء.

كان يطوى الصحف وهو يسأل نفسه: «من عاش ومن مات؟».. وتأتيه إجابة بصوت محمد السيد سعيد قادمة من أعماق ذاكرة عمرها ٢٠ عاماً: «اضرب يا جبان.. اضرب يا جبان»!.

نقلا عن جريدة «المصري اليوم»، في ١٣ أكتوبر ٢٠٠٩.

المحتفي بالاختلاف

د. سعد عمارة
قيادي بجماعة الاخوان المسلمين

بعد دقائق من اعتقالي عام ٢٠٠٥ على خلفية مظاهرات الإصلاح التي قام بها الإخوان، وحين صرتُ سجينًا في سيارة الترحيلات، وجدتني أتصل بالصديق العزيز د. محمد السيد سعيد الذي تألَّم على الحال الذي وصلت إليه مصر؛ حتى يتم اعتقال المتظاهرين سلميًا، وحاول التخفيف من سخونة الموقف؛ فقال: لعلهم سيطلقون سراحك بعد قليل -لكن الحكومة خيَّبت الظن، وأبقتني سجينًا مع مئات من زملائي أكثر من ٦ أسابيع- وحينما تأملتُ الموقفَ وجدتني أتصل به لا ليتوسط لنا عند النظام، فأنا أعلم أن عداء النظام له وللإخوان سواء، ولكنني وجدتُه من أقرب الناس لنفسي في تلك اللحظة لمعرفتي به؛ حيث يشاطر المعتقلين السياسيين ألمهم كأنه في زنزانة معهم، كما أنه يدافع عن جميع المظلومين في غياهب السجون بصرف النظر عن انتماءاتهم مهما كلَّفه ذلك من ثمن بشهامة عزَّ وجودها، وقد أخبرني ذات مرة أن قضيته الأولى في حياته هي الدفاع عن حقوق الإنسان.

كان التواصل بيننا مستمرًا في معظم المناسبات حتى تكرر مشهد اعتقال مئات الإخوان، وكنت واحدًا منهم على خلفية انتخابات المحليات العام الماضي، وبعد أن أمضينا في السجون أربعة أشهر، التقيتُ به في رأس البر هو وأسرة جريدة (البديل) -جاء رغم مرضه- مرتين ليحتفل مع أهالي دمياط وقواها السياسية بالفعاليات غير المسبوقة ضد تلوث مصنع أجريوم، الذى اعتبرها أفضل تحرك شعبي مصري في السنوات الأخيرة؛ حيث شاركتْ كل القوى السياسية بما فيها الإخوان والناصريون والتجمع والوفد والأحرار والمسيحيون وحزب الجبهة، وحتى الحزب الوطني.

وقد علمتُ في ذلك الحين أن الرجل ظلَّ يدافع عنا وعن المعتقلين في أحداث المحلة وعن الإخوان المحالين للمحكمة العسكرية، خاصةً المهندس خيرت الشاطر الذي تربطه صداقة قوية به -كما أخبرني- منذ مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨، وهنا نقف لنتأمل موقفه النبيل؛ حيث يدافع عن فصيل يختلف معه فكريًا، وهذا في رأيي سمو لرجلٍ أخلص لفكرته.

كانت بداية معرفتي به دعوة بالتليفون لعمل ندوة حول الانتفاضة الفلسطينية بنقابة الأطباء بدمياط، ولم يتردد في استجابة فورية رغم عدم سابق معرفة، والتقيت به قبل الندوة مع مجموعة من قادة الإخوان بالمحافظة؛ فتحاورنا واتفقنا واختلفنا وخرج الجميع بالتقدير لرجلٍ مفكرٍ تحترمه مهما اختلفت معه؛ حيث اكتشفنا أنه يرحب ترحيبًا نادرًا بنقاش المختلفين معه، حتى تظن أو تتيقن أنه سيعدل عن فكرته إذا أقنعته بخطئها.

لقد ظلَّ الرجل محافظًا على حياده، فلم يستطع النظام الحاكم أن يحتويه بسلطة أو مال؛ فرسالته كانت واضحةً كحدِّ السيف، لم يساوم أبدًا عليها، وقال رأيه للرئيس بجرأة وموضوعية -في سابقةٍ هي الأولى في عهد مبارك- ورغم معاناة المرض ظلَّ الرجل شامخًا، لم يحن رأسه ومات واقفًا، وكأنه يعطي للجميع مثلاً في الحب والإنسانية والشهامة والوطنية والشموخ.

اتصلت به في باريس أواخر رمضان قبل أيام قليلة من وفاته، وكان ودودًا كعادته، وسألني أن أدعو، له فسألته زوجته الفاضلة -كما أخبرتني لاحقًا- مَن هذا الذي تطلب منه الدعاء فقال لها صديق من الإخوان، فاللهم ارحمه جزاءَ ما قدَّم لأمته.. اللهم آمين.

نقلا عن موقع إخوان أون لاين، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٩

محاولة مصرية للتصالح مع ذاتها

معتز بالله عبد الفتاح
أكاديمي مصري
بالولايات المتحدة

رحمة الله على أستاذنا الفاضل محمد السيد سعيد. هذا رجل نبيل بكل معانى الكلمة، لى معه مواقف كثيرة كُلها تدلُ على نبل أخلاق هذا المفكر الكبير. واسمحوا لى ألا أتحدث عن الجانب العلمى فى تكوينه، فزيارة واحدة لأى مكتبة مضطلعة بحقوق الإنسان المصرى والعربى أو بالاقتصاد السياسى للمنطقة العربية كفيلة بتوضيح من هذا الرجل. ولكننى أكثر حرصا على توضيح الجانب الإنسانى فى فارس غادر عالمنا حاملا فى صدره الكثير من الحب والاحترام لوطنه وعالمه.

وأبدأ بأول موقف لى معه فى أحد مؤتمرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، حين اختلفت اختلافا شديدا مع أحد أساتذتى الأفاضل الذى هو صديق من أصدقائه الكبار، فانبرى الرجل للدفاع عن شاب صغير لا يعرفه وعن حقيه اللذين أشار إليهما:

أولا حقى الإنسانى فى الاختلاف مع الآخرين كبروا أم صغروا حتى وإن كُنتُ مخطئا، وحقى ثانيا فى الدفاع عما أعرف أنه الحق ما دمت أدافع عن موقفى بالحجة والمنطق وبلا أى تطاول.

وقد علمنى والحاضرين الكثير بكلماته تلك لدرجة أننى طالما كررت موقفه النبيل مع آخرين بالقول والفعل، مذكرا نفسى والآخرين بأننى ما كنت لأفعل ما فعلتُ لولا القدوةُ التى أعطاها لى ولآخرين فى مواقف مماثلة.

لقد كان نبيلا حتى وهو يشير إلى الشاب الصغير بقوله: "الأستاذ معتز أصاب حيث أخطأنا جميعا" والحقيقة أنه لم يخطئ على الإطلاق وإنما أراد أن يرفع الحرج عن أولئك الذين وافقوا الأستاذ الكبير على رأيه ورفضوا أن يقولوا "أصاب صغير وأخطأ كبير".

ذكرت الموقف أمام إحدى زميلاتى فروت لى رواية أكدت لى نبل أخلاق هذا الرجل. فقد كانوا مجتمعين فى إحدى منظمات المجتمع المدنى المصرية ويبدو أن المكان لم يكن مهيأ للاجتماع بحكم ما كان فيه من غياب النظام بل النظافة فطلب من جميع الحضور المشاركة فى تنظيف وتنظيم المكان. وهو ما قابله البعض بشىء من الاستنكار والتردد إلى أن وجدوه يشمر عن ساعديه ويذهب إلى تنظيف أقل الأماكن نظافة وهو الحمام فوجدوا أنفسهم مضطرين بحكم الحرج أن يكونوا على قدر المسئولية ففعلوا مثلما فعل كبيرهم الذى علمهم الخلق وأعطاهم المثل.

وحينما رويت له القصة بعد ذلك بسنين، رد بكل تواضع أن من نقلت القصة بالغت فى بعض تفصيلا تها وأن الشباب هم الذين بادروا بتنظيف المكان وهو فقط ساعدهم.

لكن الأهم كان تعليقه عن أن الإنسان المصرى يوجد داخله تكوين حضارى موروث لا يكشف عن ذاته إلا فى بيئة مناسبة وقيادة تضع له أهدافا محددة تخاطب فيه هذا الموروث الحضارى. وكان من أوائل من لفت نظرى لأهمية متغير القيادة فى بناء وبنية أى مؤسسة وهو ما يصدق على الدولة العصرية بحكم أنها مؤسسة المؤسسات.

وكان نبيلا حين قدمنى للأستاذ مكرم محمد أحمد بعدة أوصاف لا أستطيعُ تكرارَها ولكنه أكد على إحداها لأنها تعبر عنه هو شخصيا بامتياز وأصبحت قيمة غائبة مع الأسف بين أغلبية أصحاب القلم المصريين وهى الاستقلالية السياسية والفكرية والمصلحية. وأفاض فى تشخيص أحوال البيئة الثقافية المصرية وكيف أنها أصبحت تابعة للأجندة السياسية للدولة وأن المثقفين المصريين لم ينجحوا فى أن يحددوا أجندة مستقلة للمجتمع بمعزل عن أجندة الدولة وأن هذه ستكون مهمة صحيفة «البديل» حين تصدر.

كان نبيلا وهو يدافع عن الإنسان المصرى مؤمنا به وبقدرته على أن يستعيد مخزونه الحضارى بسرعة شديدة حين يجد معه وأمامه من يقودُه إلى مشروع وطنى مخلص يجمع بين أبناء الوطن على اختلاف طوائفهم السياسية والاجتماعية فتكون شدتهم فى الحق سيلا من العطاء لوطنٍ يستحقُ منا الكثير.

كان نبيلا حينما طلب إلىّ أن أشارك فى مقالات الرأى بصحيفة «البديل» ولكننى طلبت إليه شاكرا أن يعيد تقييم دعوته لى لأننى لست يساريا فرد بنبل أصحاب النفوس الكريمة: «ولكنك شاب مصرى صاحب رأى ورؤية لا بد أن ترى النور» (أعتذر لو كان فى هذا الكلام أى شبهة مدح للنفس، فهذا ما لا أقصده يقينا). وأقسمُ بالله غير حانث، إننى كنت أتشكك أنه يخاطبُ شخصا غيرى فأنا لا أعرف إن كان جادا فيما يقولُ بشأن الرأى والرؤية أم هو اختلط عليه الأمر فيظننى شخصا آخر.

ولكننى لم أستطع أن أراجعَه فيما قال طويلا حتى لا يظنَ أننى أدّعى التواضعَ متظاهرا به أبتغى فقط منه أن يكررَ على مسامعى مديحَه. فطلبتُ منه أن نُجربَ لمدة محددة عسى أن يكون فيما أكتبُ بعضٌ مما يتوقعُه، مع حقه تماما فى أن ينشر فى المساحة المخصصة لى أى مقال آخر يراه أولى بالتقديم، وهو حق أصيل له لم يكن بحاجة لى أن أكرره عليه، لكنه نهانى أن أفكر بهذه الطريقة أصلا لأن المثقفَ الحقيقى يكتب بيقين حاسم وإحساس صادق بأنه يكتُبُ ليغيّرَ العالَم نحو

الأفضل، وأنه سيُقدمُ على هذه الرسالة سعيدا بها مُستشعرا أهميتَها، وأن قُراءَه ينتظرونه كى يساعدَهم على تبصر جوانب الحقيقة المختلفة التى يملكُ منها وجها واحدا فقط وللآخرين الحق فى تَبيُن وجوهها المختلفة، وهو موقف ليبرالى رائع ناضج وواعٍ.

وحين حصل على جائزة الدولة للتفوق، اتصلت مهنئا وقلت له "رائع أن يصحَ الصحيحُ فى مصرَ أحيانا، فهذا يعطى الأملَ فى أن صوابَ الاختيار ما زال ممكنا!" فرد مستغربا أننى أتشككُ فى أن صوابَ الرأى لايزال ممكنا بل ومنتقدا نبرة عدم اليقين فى تعبيرى عن إمكان أن يصح الصحيح. "اشتغل إنت بس ومالكش دعوة" كان رده القاطع بألا أفكر طويلا فى العقبات أو فى العواقب الذاتية للعمل والاجتهاد وأن الإحباط أو الخوف من الفشل ليس بديلا أخلاقيا. وكان درسا آخر من مثقف نبيل.

ويوم أن قلت له إننى سأسافر إلى الولايات المتحدة لفترة لا أعرف مداها، صمت صمتا له صوت، وسكن سكونا تمنيت أن يقطعه بأى كلمة: عتابا أو تشجيعا أو حتى استفسارا، ولكنه اعتبر أن سفر أمثالى نجاح لقوى التخلف فى طرد أبناء مصر خارجها، وحين جاء وقت الرحيل قال لى: "لا تذهب إلى هناك وتنسى مصر". وقلت له: "ما قدرش".

رويت له ذات مرة حوارا دار بينى وبين أحد باعة الصحف: هل لديك "البديل"؟ فقال لى: وما البديل؟! قلت له هذه صحيفة أعتقد أنها أكثر الصحف المصرية احتراما. قال لى إذن "البديل" هذه لن تنجح لأن ما ينجح فى مصر هو الصحف غير المحترمة.

رويت للمرحوم هذه المقولة القاسية طالبا رأيه، فرد النبيل محمد السيد سعيد: "حتى وإن فشلنا فلنا شرف المحاولة". فقلت له يا دكتور محمد إنت شخصيا محاولة عظيمة من مصر كى تتصالح مع ذاتها الحضارية، فرد بابتسامة متواضعة وكريمة ونبيلة: "أشكرك". وكان هذا آخر لقاء بينى وبينه.

حاولى مرة أخرى يا مصر، انجبى لنا المئات والآلاف من أمثال هذا الرجل النبيل، فلن ننجحَ إلا إذا ساد أمثالُ هذا الرجل الذى كان يعتقد أننا لن ننجح إلا إذا كانت ثقتُنا فى النجاح تتخطى بمراحل مخاوفَنا من الهزيمة ومللنا من المحاولة.

نادرا ما أبكى على رحيل الناس، لاعتقادى أنهم قفزوا إلى ما نحبو إليه وكأننا أمواتٌ مؤجلون نبكى أمواتا سابقين، ولكن مع هذا الرجل غلبتنى إليه دموعى لحبى واحترامى لنبيل لا أعرفُ مثله كثيرين. رحمة الله عليه، وأنقذَ مصر من وهدتها، وأسكنه وإيانا فسيحَ جناته. آمين.

نقلا عن جريدة «الشروق» في ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩.

إنسان غير عادي

عادل جندي
كاتب وناشط حقوقي مصري
مقيم في باريس

قبل أن يكون مفكرًا بارزًا فإن د. محمد السيد سعيد إنسان غير عادي.

عرفته عبر السنين -مثل الكثيرين- خلال كتاباته المنيرة ومواقفه المبدئية الصلبة. لكن لم أعرفه عن قرب إلا أثناء فترة علاجه بفرنسا التي دامت عدة أشهر هذا العام، وانتهت بعودته للقاهرة -بعد أن رفع الأطباء الأعلام البيضاء- علي حد تعبيره هو شخصيًا في سخرية تخلو تمامًا من الخوف أو اليأس أو الشفقة علي الذات. ولم يمر علي عودته سوى أسبوع واحد حتى غادر الحياة بأكملها.

في البداية كان يرفض بعناد فكرة أن يُعالج في الخارج؛ قائلاً إنه ليس أفضل من باقي المصريين، وما عليه إلا أن يعالج في مصر كما يعالجون، وما يسري عليهم يجب أن يسري عليه. وتحت ضغوط أصدقائه ومحبيه امتثل للأمر وبدأت رحلة الإجراءات والروتين؛ مما أدى لمزيد من التأخير في العلاج، بصورة ربما كان لها تداعيات سلبية على مسار حالته.

وصل فرنسا وهو يكاد يشعر بالذنب من التكلفة العالية للعلاج. وما أكثر ما كان يوصي زوجته الفاضلة (البطلة نور، التي كانت خير معين له طوال فترة العلاج العصيبة بدون كلل أو ملل أو فتور) بالتدبير والاقتصاد في المصاريف!

ومع امتداد الوقت، تحمَّلت الدولة الفرنسية تكلفة العلاج، مما زاد من شعوره بالذنب فنجده يتساءل أكثر من مرة: "أليس المواطنون الفرنسيون أحق مني بهذه المصاريف الباهظة؟"!

أعلن جسدُه العليل العصيان التام: فقد كانت مناعته الضعيفة، بل المنهارة، قد وصلت إلى حد جعلت مباشرة العلاج الضروري لقهر المرض اللعين أمرًا شبه مستحيل. وتركز معظم جهد الأطباء علي معالجته من المضاعفات.

من يستطيع أن ينسي تساؤله البريء: "هل يستحق الموضوع كل هذا الجهد والتعب والتكلفة، لمجرد تأجيل الساعة الحتمية لشهور أو حتي لسنوات؟". وإذ يتمسك زائرُه بأهداب الأمل، محاولا بكل قوة أن يبث فيه روح الشجاعة والمقاومة والنضال، يبدو أن أمثاله ممن يتحلون بهذه الصفات دفاعا عن مبادئهم وعن حقوق الآخرين، لا يشعرون في قرارة أنفسهم بالحق في اللجوء إليها إذا تعلق الأمر بتمسكهم هم بالحياة.

في كل مرة يعوده أحد من أصدقائه ومحبيه، كان يتهرب من الكلام عن ذاته ويتحامل علي نفسه وعلي آلامه، فيسأل الزائر بود شديد واهتمام حقيقي عن أحواله وصحته وعائلته وقراءاته ونشاطاته! ثم يسأل عن أخبار "البلد" وما يجري فيها متابعًا أحوالها بالتفصيل وكأنه لم يغادرها قط. ولا ينسى أن يذكر أحلامه وآماله بشأن "المحروسة".

في يوم سفره للقاهرة، وبعد أن قام رجال الإسعاف بإعداده للرحلة، أبى أن يتحرك إلا بعد أن يشكر حفنة مودعيه، ليس بصورة عامة؛ بل متوجها لكل منهم فردًا فردًا بكلمات امتنان قلبية، تتعدى المجاملة الرقيقة وتفوق الدماثة الراقية.

رحيل محمد السيد سعيد خسارة فادحة، فهو إنسان نادر جدًا. لا أقول "كان"، لأن أمثاله يبقون في قلوب الناس زمنًا طويلا.

نقلا عن جريدة «الأهالي» في ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩.

العقل الجميل

هاني نسيرة
مدير وحدة البحوث بمركز المسبار – دولة الإمارات العربية

كان آخر لقاء بيننا منذ ما يقرب من عام في أبو ظبي، في المنتدى السنوي لجريدة الاتحاد الإماراتية، كان الملأ جميلا مكتظا بالأفكار والأصدقاء الأعزاء، ولكنه محمد وأي محمد هو، إنه النموذج النبيل الذي نرنو إليه حين نصفو، ونلوم أنفسنا به حين نخطئ، إنه محمد السيد سعيد المفكر والإنسان، تحلقنا حوله وهو أستاذ بيننا، وكان بيننا من في مثل سنه أو يزيد!

كان سعيدا بجيله ومعتزا بأصدقائه وأساتذته، يقول لنا وهو يبتسم: كنت صغيرا وخريجا طازجا حين كان السيد يس يطلب مني أن أحاضر في مركز الدراسات حول مفهوم التضخم الاقتصادي، وحول الشركات العابرة للقارات، ويسترجع بعضا من جلساته مع الدكتور زكي نجيب محمود والأستاذ طارق البشري وعادل حسين وأبو سيف يوسف حين كانت عامرة بالكبار والعظماء، كنت أسمع وأقول في نفسي ستظل جميلا نبيلا.. ستظل كما أنت!

كلما تذكرت كلمة من قال لا نزهة أجمل من التنزه في عقول الرجال، تذكرت محمد السيد سعيد، فأنت حين تسمعه وتجالسه أو تقرأه تعرف أنه ليس أجمل من العقل شيئا، وأنه ما خلق الله شيئا أحب إليه منه كما جاء في الآثار!

كان محمد السيد سعيد مفكر الحركة الطلابية بينما كان الآخرون زعماءها، وكان محمد السيد سعيد مفكر حركة حقوق الإنسان المصرية الأول بينما كان الآخرون نشطاءها، كما كان محمد السيد سعيد المفكر الموسوعي بامتياز، فإذا سمعته يتحدث في الفلسفة فأنت أمام فيلسوف وإذا سمعته يتحدث في السياسة فهو المفكر السياسي المحلق، وإذا سمعته يتحدث في الموسيقى فأنت أمام ناقد موسيقي من الطراز الأول.. ذهبت مجهدا للصديق العزيز الدكتور جمال عبد الجواد، حين كنت أعمل مساعدا للدكتور محمد السيد سعيد في تحرير مجلة رواق عربي أواخر التسعينيات، المجلة الأولى في مجال حقوق الإنسان عربيا، وقلت له لا أستطيع أن أجاري هذا الرجل، إنه عميق في كل شئ، يفهم المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي كما يتكلم عن فقه المقاصد عند الشاطبي، والمحنة لابن حنبل، كما يفهم الموسيقى القبطية ويطير ويؤسس في الفلسفة السياسية، أنا لست أهلا أن أكون مساعدا له، وعلي أن أكون صادقا مع نفسي وأترك العمل، فضحك الصديق الدكتور جمال، وقال لي: هذا هو محمد السيد سعيد! وهكذا كل من عرفه!

ومن أراد فليقرأ اتساعه متوزعا في الاقتصاد كتابه الرائد حول الشركات العابرة للقارات، وفي السياسة ما كتبه حول مستقبل النظام العربي بعد حرب الخليج، وفي الفكر دراساته حول النزعة الإنسانية والإسلام وحقوق الإنسان، وتحديات الثقافة العربية، وحكمة المصريين، والحوار مع الحركات ذات الإسناد الديني، وفي الموسيقي ما كتبه حول الموسيقي القبطية في مصر، والتعليم التكنولوجي والتنمية المستدامة... كثير كثير متسع.. يتعب من عرفه ويريح من جاء بعده!

شرفت بتقديم الدكتور محمد لكتابي حول" الدكتور محمود عزمي رائد حركة حقوق الإنسان في مصر" سنة ٢٠٠٣ وقال في تقديمه أنه وجد كثيرا من محمود عزمي في شخصه، استقلاليته وإخلاصه لقناعاته وإيمانه بحقوق الإنسان وتأسيسه أول منظمة مصرية لحقوق الإنسان سنة ١٩٣٠ ضد حكم صدقي وانقلابه الدستوري، كان سعيدا بحماسي لمحمود عزمي دافعا لي على الانتهاء، ومصححا بتواضع جم لبعض أحكامي الحادة في تقييم الرجل بين ليبرالي عصره، وكنت أقول في نفسي: يا ترى من يكتب كتابا عن محمد السيد سعيد يوما!

لم يكن محمد السيد سعيد من هؤلاء المماليك الذين يبحثون عن سيد يملكهم ويرعاهم، فقد كان سيدا لا تعنيه سوى قناعاته التي يقولها بصدق في وجه كائن من كان، من السلطة السياسية أو الثقافية، لست أنسى مشادته مع ياسر عرفات في ندوة بالأهرام حول الفساد في السلطة، وأهمية حقوق الإنسان من أجل استقرارها، كما لا يمكن أن تنسى معارضته ومناقشته الجادة للرئيس مبارك في معرض الكتاب، حين اخترق إجماع التزلف والمجاملة في لقائه بالصحافيين والكتاب المصريين، وناقش مطالبا الرئيس بتعديل دستوري جوهري من أجل التنمية والديمقراطية، ورفض شماعة الإسلاميين، التي تعلق عليها السلطة عطبها الديمقراطي، بما استفز الرئيس وأغضبه!

حين آمن بـ " كفاية" كان عضوا مؤسسا ونشطا فيها، وحين آمن بالبديل، وهو من كتب يوما حول:" إنتاج نخب بديلة" تفرغ لها حتى اخترقه المرض، ولكن صنع تجربة لا شك تركت أثرا رغم قصر عمرها، كان دائما ما يؤمن به! كان مفكرا أخذت السياسة كثيرا من وقته، كما كان سياسيا تعاطى معها دائما بنزاهة المفكر واستقلاليته.

إن محمد السيد سعيد واحد من قلة يمكن القول أنها تنال إجماع النخبة المثقفة المصرية بإخلاصها وتفانيها ونوعية طرحها، ولا شك أن وجود كتابات محمد السيد سعيد وآرائه كان ثراء دائما للجدل الفكري في أوساط هذه النخبة، فقد كانت كتاباته دائما أبعد ما تكون عن التكرار وأعمق ما تكون في عالم الأفكار..

شخصيا عرفت د. محمد كما عرفه كثير من أبناء جيلي، اقتربت منه كما اقتربوا، كان الأب حين فقدنا الآباء، والأستاذ الذي منعنا أن نقول أننا جيل بلا أساتذة، شاركني كثيرا من مشاكلي الخاصة الفكرية والعملية والاجتماعية، كان الصديق الذي يقوي كما كان الأستاذ الذي يرشد ويطور، لم يكن يبخل بمكتبته كما لم يكن يبخل بفكره، وفي كل كان التواضع والدماثة سمته، رحمك الله يا محمد فما عرفت أحدا عرفك إلا أحبك! وأشهد أني كنت أكره أن أراك مريضا ولكن ما نسيت يوما أن أسأل عنك وما برحت أشتاق إليك، أستاذا ومفكرا حقيقيا حين نكاد نفقد الحقيقيين في زمن المسخ!

نقلا عن «العربية نت» في ١٣ أكتوبر ٢٠٠٩.

الأستاذ

د. منار الشوربجي
أستاذ العلوم السياسية
بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

ليس من السهل على من عرف الدكتور محمد السيد سعيد أن ينعيه. فهو كان نموذجا إنسانيا بالغ الرقي والعمق معا، وعالما ومفكرا فذا يصعب تكراره. كنت ممن وهبهم الله نعمة الاقتراب منه عبر فترة زمنية امتدت لما يقرب من الخمسة والعشرين عاما، كان فيها الأستاذ والصديق والأخ الأكبر.

عرفته في البداية أستاذا تتلمذت على يديه في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام فور تخرجي. وقتها كان يرأس تحرير التقرير الاستراتيجي العربي الذي كان المركز يصدره سنويا، وكنت ضمن فريق العمل البحثي من حديثي التخرج الذين يعهد لهم بإعداد المادة وكتابة بعض الأجزاء. وقتها لقيت منه تشجيعا بلا حدود، وراح يمنحني من وقته وجهده الكثير من أجل التطوير والإجادة.

والحقيقة أن ما فعله معي الدكتور محمد السيد سعيد في تلك المرحلة المبكرة من حياتي المهنية والأكاديمية، لم يكن الاستثناء وإنما كان القاعدة عنده.

فهو طوال أكثر من عقدين عرفته فيهما، فعل الشيء نفسه مع عشرات من الشباب الذين طرقوا بابه حتى دون موعد سابق! طوال تلك السنوات كنت نادرا ما أدخل مكتبه فلا أجد عنده شبابا حديثي التخرج، جاءوا يطلبون معونته أو حتى ليناقشوا معه بعض الأفكار. كان يؤمن بأن الوقت الذي يمضيه مع الشباب، يساعدهم فيه ويصقل مواهبهم، هو استثمار مباشر في مستقبل هذه الأمة والمفتاح الرئيسي لنهضتها.

انتهت فترة تدريبي بالمركز التي شرفت فيها بالعمل معه وتعلمت فيها منه الكثير، لكن أبدا لم ينقطع بعدها الاتصال بيننا. ومع الوقت نمت الصلة وتعمقت حتى صار لا يقوم فقط بدور الأستاذ، وإنما بدور الأخ الأكبر أحيانا، بينما ظل طوال الوقت الصديق الذي لم أمر بمحنة إلا ووجدته إلى جواري.

كنت حين يهاتفني أعرف من أول عبارة يقولها من سيكون هذه المرة. فإذا ما قال لي "كيفك يا أختي"، عرفت أنه بصدد توجيه نصح في أمر طرأ على باله بعد التفكير في شأن من شئوني.

أما إذا قال "ازيك يادوك" كما كان يحب أن يختصر لفظ "دكتورة"، أدركت أنه بصدد التعليق على فكرة كتبتها -بالنقد أو بالثناء- أو أنه على وشك أن يناقش معي أحد مشروعاته الفكرية أو الوطنية. أما إذا حياني "بصديقتي العزيزة" أعرف أنه يتصل للاطمئنان، وأنني بصدد تلك المحادثة الممتعة التي تجري بيننا من القلب، وتدور عن أي شيء وكل شيء من الهم العام إلى الشأن الخاص والعكس.

كان محمد السيد سعيد نموذجا يجسد عبقرية مصر ومحنتها في الوقت ذاته. فهو العالم الفذ، والمثقف الموسوعي، والناشط السياسي الذي أنجبته مصر وحظي بشهرة واحترام تخطى حدود بلده. فلم تكن مصادفة أن تقرر الحكومة الفرنسية أن تتولى نفقات علاجه في مرضه الأخير، اعترافا بإسهاماته في مجال حقوق الإنسان وغيرها. ولكن محمد السيد سعيد تجسيد أيضا لمحنة مصر، لأن مثله من العقول الفذة كان يستحق أن يعامل في حياته، بل وفي محنة مرضه، بما يليق بقدره وما يتناسب مع قامته وملكاته.

مفتاح شخصيته هو عشقه لبلاده، فهو المحدد الرئيسي لكل سلوكه. كان حبه لمصر بالغ العمق والتركيب. كان العاشق الذي يحنو على محبوبته، ويزداد احتضانه لها كلما تعمقت محنتها. وأحيانا كان يغضب منها أو عليها، ولكنه أبدا لا يخاصمها ولا يصيبه اليأس منها. ما من مرة هاتفته طوال رحلة علاجه التي امتدت شهورا طويلة، إلا وكان يسألني بإصرار "وإزيّ أحوال البلد؟".

وفي كل مرة كان صوته يحمل لهفة وشوقا لسماع الإجابة. كانت قضايا الأمة العربية وأزماتها حاضرة في عقله وقلبه، لا يكف عن إعمال فكره من أجلها، ولا يتوانى عن أي فعل أو قول يخدم مصالحها. ولعل كتابه «النظام الإقليمي العربي» أحد العلامات المهمة في الفكر العربي والتأصيل النظري رفيع المستوى.

كان انتماؤه الصلب للأمة العربية عميقا دون ضجيج، ومؤثرا دون افتعال. كنت تلمح ذلك الانتماء العربي في كل ما يكتب، دون أن يذكره صراحة بكلمة واحدة. وطوال ما يقرب من ربع قرن، لا أظن أنني رأيته غاضبا إلا من أجل حق عربي ضائع، أو من أجل كرامة عربية مهدرة في أي قطر من أقطار العالم العربي على اتساعه.

آخر مرة سمعت فيها صوته كانت قبل عشرة أيام من رحيله. وقتها كان لا يزال في فرنسا، سألته عن أحواله فأخبرني بنفسه أن الأطباء أخبروه أن المرض قد خرج عن السيطرة ولم يعد في يدهم ما يفعلونه. ورغم أنه لم يكن هناك ما هو أكثر قسوة وإيلاما مما قال، إلا أنني لمحت في صوته ارتياحا واضحا وهو يقول لي "أنا عائد إلى مصر".

ربما كان الارتياح سببه أنه كان يدرك أنه يوشك أن يتخفف من آلام جسده الذي هزمه المرض، أو ربما لأنه كان يريد العودة لمصر التي أعرف تماما أنه كان لا يطيق البعد عنها أبدا.

وقتها خانتني الكلمات ولم أجد ما أقوله، سوى أننا جميعا مشتاقون لرؤياك. فطلب بإصرار ألا يستقبله أحباؤه في مطار القاهرة. قال "أنا عايز آجي مصر بهدوء علشان أرتاح". تعبير بالغ البساطة والعمق معا كما هي عادته. منع أطباؤه في القاهرة الزيارة عنه منذ أن عاد لأرض مصر، فلم يتمكن أحباؤه حتى من رؤيته. لكن الكثيرين صحبوه إلى مسقط رأسه بورسعيد حيث مثواه الأخير.

رحم الله عاشق أمته العظيم، الذي سيظل حيا في كل فكرة كافح من أجلها، وفي كل حلم من أحلامه الكبرى لبني وطنه من المحيط للخليج.

نقلا عن جريدة «البيان الإماراتية» في ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩.

الأديب الذي سحرته الفلسفة وعذبته الأفكار

سعيد الشحات
كاتب صحفي

بين أوراق الدكتور محمد السيد سعيد (رحمه الله) التى اطلعت عليها أثناء عملى معه نائبا له فى رئاسة مكتب جريدة البيان الإماراتية، ورقة مكتوبة بخط يده وبقلم رصاص تحدد هويته السياسية: "ليبرالى.. ديمقراطى.. عدالة اجتماعية"، ولاحظت يومها، أن لفظ "العدالة الاجتماعية"، تمت كتابته بعد شطب كلمة "اشتراكى".

كان ذلك عام ٢٠٠٥، وكانت مصر وقتئذ تعيش غليانا ملحوظًا، ترفع من درجته حركة كفاية التي كان الدكتور محمد السيد سعيد أحد مؤسسيها، وقادتها وكانوا من أطياف فكرية مختلفة، وكنت رغم حداثة العهد فى التعامل معه أشعر أنه يقربنى إلى كل المناطق التى أرغب أن أسأله فيها فكانت أسئلتى إليه التى لا تنتهى، وإجابته التى تحمل يقينا داخليا، لكنه اليقين الذى يقف دائما على أرض القلق، ومرة قلت له كلما شاهدتك يا دكتور متحدثا عن أفكار لامعة فى انسياب واضح، وعينيك صوب الفضاء يأتينى قول المتنبى: "على قلق كأن الريح تحتى"، كان يبتسم فى خجل، تلبسه أثواب العلماء المتواضعين، والمفكرين الذين تقلقهم الفكرة إلى الدرجة التى يخيل إليك أنهم يسعون إلى الإمساك بها لمعرفة حجم اليقين الذى تقف على أرضه.

وبهذه الحالة التى كان عليها لم أجد أصدق من التوصيف الذى قاله عنه صديق عمره الدكتور عبد المنعم سعيد رئيس مجلس إدارة الأهرام: "كان أكثرنا معرفة بالفكر بصفة عامة، ولم أعرف أحدا يطلق عليه صفة المفكر الشامل الذى يعرف الفلسفة وتاريخ الأديان وأشكالاً متعددة من الفنون المختلفة من الموسيقى إلى السينما قدر ماكان لديه، وربما كان هو الوحيد من بين كل الرفاق الذى كان يعيش الفكرة حتى تكاد تظن أنها سوف تمزق أضلعه وأعصابه ودورته الدموية، لأنه لم يكن حنجوريًا قط مما جعل من جسده كله مكاناً للتوتر الكامن وراء ملامح هادئة".

كانت ملامح محمد السيد سعيد بالفعل هادئة، لكن مكامن التوتر لأجل البحث عن الحقيقة هى همه الدائم، ولهذا يمكن فهم لماذا هو شطب فى الورقة التى اطلعت عليها، كلمة "اشتراكى"، وكتب بدلا منها تعبير: "عدالة اجتماعية". شطب كلمة اشتراكى برغم أن الفكر الاشتراكى كان هو مدخله إلى عالم الفكر والسياسة والسياسيين، منذ أن دخل الجامعة عام ١٩٦٨ طالباً فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وانضم إلى جمعية الفكر الاشتراكى بالجامعة أثناء تولى الدكتور عبد المنعم سعيد قيادتها، وفى الجامعة مارس نضاله الطلابى مشاركاً فى المظاهرات، وتخرج فى الجامعة عام ١٩٧٣، وشارك فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وأنهى خدمته العسكرية ليلتحق بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

سألته عما قرأته فى الورقة، ولماذا شطب على كلمة اشتراكى، عاد إلى الوراء يروى محطات أفكاره، ومن بينها أنه منذ النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى وهو مقتنع بأن الإجابات الكبرى التى قدمتها الماركسية لابد من تجاوزها، لأنها تخص مراحل تاريخية مضت وبالتحديد النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، ولم تعد هذه الإجابات صالحة الآن.

لم تحمل هذه القطيعة من الدكتور محمد السيد سعيد للفكر الاشتراكى فى طبعته الماركسية الجامدة قطيعة لجانبها الإنسانى فيما يتعلق بمنحاها نحو العدالة الاجتماعية، ولم تمتد القطيعة لآباء هذا الفكر التاريخيين فى مصر، ورأيت منه شوقا لافتاً إلى الذهاب لاثنين من رواده للتسجيل معهما صحفياً هما محمود أمين العالم، والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، كان يبدو وهو يستعد لإجراء الحوارين معهما وكأنه يبحث عن صحة اختياراته السابقة في لقائهما، فالاثنان رحلا وهما على عهدهما بفكرهما الماركسى رغم كل التحولات التى حدثت.

ظل الدكتور محمد السيد سعيد يبحث عن الجديد الذى يستطيع من خلاله توسيع رقعة النضال وإخراجه من صيغه التقليدية، فكانت له البصمة الواضحة فى قضايا المجتمع المدنى، بالتحريض والعمل على إنشاء مراكز حقوق الإنسان، ولم يفعل ذلك بوصفه أكاديمياً يلقى الكلمة وفقط، أى مفكرا يجلس فى برج عاجى، وإنما ساهم بالحركة، وإثر ذلك كان اعتقاله عام ١٩٨٩ بسبب تضامنه مع عمال الحديد والصلب، وهو الاعتقال الذى لقى فيه تعذيباً بشعاً، وكان زكى بدر وزيراً للداخلية وقتها، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد زيارة غاضبة قام بها إليه مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين وقتئذ.

لم يكن الدكتور سعيد مفكرًا من طراز رفيع ينتج أفكارًا وفقط، وإنما كان يصوغها كأنما يحلق بك فى فضاء اللغة وجمالياتها. لما سألته ذات مرة عن نصيبه فى الإبداع الأدبى، سألنى عن سبب سؤالى، فقلت له فى مقالتك نهايات أقرب لما يسمى فى القصة القصيرة بلحظة التنوير، وهى اللحظة التى تنتهى بها القصة لتكون كاشفة، قال:

"كنت أكتب القصة القصيرة بالفعل لكننى فى مرحلة من حياتى جمعت كل ما كتبته وأشعلت فيه النار للتخلص منه نهائياً"، كانت إجابته مفاجئة ولما أبديت استغرابى، رد قائلاً:

"فعلتها كى أحدد وظيفتى الأساسية كباحث فى الفكر والسياسة، وأقطع الطريق أمام أى شىء يسرقنى من هذه الوظيفة حتى لو كان الإبداع الأدبى نفسه". أقدم محمد السيد سعيد على هذا الفعل، لكن فيما كتبه يتجلى خليط الفكر بجرعته الإنسانية التى تؤهلك مبتدأ ونهاية، للتوصل إلى أنك أمام مبدع من طراز رفيع، مبدع تشهد له حين تقرؤه، ومع اقترابك منه تجد امتداد إبداعه إلى نظرته للبشر والتعامل معهم، خاصة هؤلاء الذين كان يشعر نحوهم بمسئولية إنسانية، وكم رأيت بعينى محتاجين يدقون بابه، ويلبى حاجتهم فى صمت، ورغم اختلاف السبل مع الرفاق القدامى، رأيت الكثيرين منهم يلجأون إليه مع قسوة الظروف عليهم، وفى كل مرة كنت أراه يفك أزمة محتاج كنت أزداد يقينا بأننى أمام رجل يحمل قلبا بداخله إنسان، قلبا يسع الكرة الأرضية، أمام رجل يؤمن بأن رسالة المفكر لا تقف عند ما يقوله للبشر، وإنما ما يفعله لهم أيضًا.

نقلا عن جريدة «اليوم السابع» في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

غادرنا مرفوع الرأس

د. عمار علي حسن
مدير مركز أبحاث ودراسات الشرق الأوسط

مات محمد السيد سعيد واقفا، كنخلة سامقة باسقة، لم يركع ولم يخضع، بينما انحنت أعواد البوص الهشة من حوله حين هزتها ريح المنافع والمخاوف والمطامع. كان وردة بين الأحراش، ونسرا مجنحا بين طيور مهيضة، وخيط نور يرقص بهجة وسط سواد حالك يلف أيامنا، وخلية حية من خلايا قليلة بين أجساد أخمدها اليأس، وجثث تعفنت من فرط انتظار الفتات، الذى يجود به السلطان.

مات معمل الأفكار المتنقل، والفيلسوف العظيم. انطفأت الشمعة التى ظلت تحترق على مهل، وفى صبر، من أجل أن تمنحنا أى مسارب نعبر بها صحراء الوطن التى اتسعت حتى كادت أن تسد أمامنا الأفق. كان يبصر ما لا يراه من عميت أبصارهم، ويستشعر ما يغفل عنه من فسدت أذواقهم، ويدرك ما يستغلق على أفهام المتعجلين.

مات الرجل المتواضع، الذى كان رأسه يتطامن من ثقل ما يحمله من علم موسوعى عميق. سكنت النفس التى كان باطنها من فرط حب الوطن والشوق إلى المعرفة يغلى كبركان، وظاهرها هادئ كماء جدول رائق. استراح العقل الذى لم يكف يوما عن معاندة السائد والبائد، وكسر المألوف، بحثا عن الجواهر الخالصة التى ينهض على أكفها بلدنا العظيم، وتنتصب بها ظهور أهله المكدودة، التى يحاول أن يكسرها الفاسدون المستبدون.

مات الرجل الذى عشق التضحية فى سبيل أفكاره ومبادئه وأصدقائه وأحلامه العريضة، قديما أراد أن يشعل النار فى جسده أمام جامعة القاهرة فى مظاهرة مشهودة حتى يصل صوت رفاقه إلى السلطة المتلكئة فى تحرير الأرض والانتصار للكرامة، وأخيرا خاض مغامرة «البديل» رغم تحذيرات كثيرين له بصعوبة التجربة، وتأثيرها السلبى على مشروعه الفكرى الخلاق، لكنه آثر أن يفتح ثغرة فى جدار أصم، متعاليا ومتساميا عن مصلحته الشخصية، ومنحازا بكل كيانه إلى ما عليه من واجب حيال تيار سياسى وفكرى انتمى إليه، وأخذ منه وأعطاه.

ومهما قيل عن محمد السيد سعيد اختلافا وائتلافا فإن هناك أمرين هما أكثر ما يلفت الانتباه فى مشروعه الفكرى، الأول هو: تمييزه الرائق بين ما هو علم وما هو فكر، مع جمعه المحكم لهذين المسارين من دون خلط ولا التباس، وهى مسألة ليست بالهينة حال تحليل ما تنتجه الأقلام العربية فى اللحظة الراهنة.

أما الثانى فهو تخلصه من عوار الأيديولوجيا وعيوبها وثقوبها وتبنيه نسقا قيميا تتجاور فيه الحرية الناجعة مع العدالة الناجزة والمساواة غير الحسابية، ثم تتفاعل وتتماسك لتشكل إطارا محكما يرجع إليه ويقاس عليه. وفى رحلته تلك التى اتسمت بنقد صارم للذات ووعى كامل بالعالم حافظ أستاذنا على انحيازه للبسطاء، ومقاومته للفساد والاستبداد، وسعيه الدائب إلى كل ما يدفع الأقدام إلى الأمام.

لقد عرفت الدكتور محمد السيد سعيد فى ميعة الصبا حين قرأت كتابه «الشركات عابرة القومية» فأسرتنى إحاطته، وقدرته على التحليل العميق، الذى يلتف حول الظاهرة، ثم يقتحمها بحثا وفحصا، فلا يترك شاردة ولا واردة، بوسعه أن يصل إليها إلا التقطها، واستخدمها على أكمل وجه.

ورحت أتابع كتاباته فى مجلة «السياسة الدولية» لا يفوتنى منها شيء، حتى رأيته يتحدث ذات مرة فى مؤتمر لمركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، نقطة النور التى غمرتنى بفضل لا ينقطع، فتعجبت وتساءلت: كيف لصاحب هذا الأسلوب العميق أن يخفض رأسه، ويزاور بعينيه عن متابعيه خجلا.

يبدأ كأول المطر، قطرات متقطعة تحسبها عارضة، ثم ينهمر بعدها شلال من المفاهيم والمصطلحات والجمل والعبارات التى صكها عقل متوقد، وفؤاد طروب بحب الوطن. ومرت الأيام فكانت لنا لقاءات بمكتبه فى الأهرام أو بنقابة الصحفيين أو على هامش المؤتمرات والندوات، فوجدت فيه أستاذا مكتملا، وإنسانا نبيلا، يتبع قوله عملا، ويطابق مخبره مظهره، ويتسع قلبه للناس جميعا.

ما وجدته حانقا إلا على جاهل متنطع، ولا غاضبا إلا من مستبد ظالم، قلت له مرة ونحن نجلس متجاورين بالطائرة عائدين من أبوظبى إلى القاهرة: أنا عاتب عليك. فرفع رأسه مبتسما، وسأل: لم؟ فقلت: دراساتك ومقالاتك النظرية العميقة التى تناثرت على صفحات جرائد ودوريات هنا وهناك، جديرة بأن تجمع فى كتب، إنها خلاصات تجربتك التى زاوجت فيها بين النظرى والتطبيقى، وبها من المعارف والمعانى والقيم ما لا يجب أن يضيع. واتفقت معه أن أتسلمها منه على ديسكات، وأتولى وأحد أصدقائى، مسؤولية تصنيفها إلى موضوعات متجانسة، تجمعها سلسلة من الكتب، يصدرها مركز الأهرام، أو غيره.

لكن الظروف لم تسمح بأى خطوة لتنفيذ هذا الوعد، فالأستاذ الكبير ذهب إلى باريس ليخوض معركته الأخيرة، بصبر وكبرياء، ولما عاد حال بيننا هادم اللذات ومفرق الجماعات، وما لا يفلت منه إنسان، لكن بقى الوعد فى عنقى ديناً له، وفى ذمته واجب علىّ.

أستاذنا ارقد بسلام حيث الرحمة والعدل فى رحاب ذى الجلال، فغدا سنترك ما خوله لنا الله وراء ظهورنا، ونأتى إليه فرادى مجردين، لا حول ولا طول، لا قوة ولا جاه، وهناك سنعرف أن رب العزة لا يضيع أجر من انحازوا إلى الحق والحقيقة.

نقلا عن جريدة «المصري اليوم» في ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٩.